المذاهب الفلسفية المعاصرة

تأليف

سماح رافع محمد

خبير المواد الفلسفية بوزارة التربية والتعليم

الناشر

مكتبة مدبولي

« يجب أن أفتح نوافذ بيتي
لكي تهب عليه رياح كل الثقافات ،
بشرط أن لا تقتلعني من جذوري »

غانـــدي

المقدمة

يتميز القرن العشرين بسرعة التغير وغزارة الانتاج في شتى مجالات الفكر والحياة ، وأصبح من الضروري على الانسان العصري في أي مجتمع أن يلم بأحدث منجزات الحضارة الغربية ، التي تنعكس بدورها في المذاهب الفلسفية المعاصرة ، باعتبار أن الفلسفة مرآة العصر التي تظهر من خلالها شتى أحداث المجتمع . ومن ثم فان استعراض هذه المذاهب الفلسفية المعاصرة ، يعني أننا نطل على المجتمع الغربي من خلال تلك الثمرات الفكرية ، التي تمثل عصارة الحضارة الغربية منذ بداية تطورها حديثا وحتى قرب اكتمال نضجها حاليا .

ونحن في الشرق العربي نعيش الآن مرحلة تغير سريع ، نسعى من خلالها الى التقدم ، ونحاول بواسطتها اللحاق بركب التطور العالمي ، ومثل هذا الهدف يقتضي منا التزود بأحدث منجزات الغرب لنستعين بما يصلح منها في بناء مجتمعنا العربي ، ونترك ما لا يتفق منها مع ظروفنا الشرقية . لكننا يجب أولا أن ندرس الفكر الغربي بوعي

قومـــي ، لنستطيع بعد ذلك أن نقوم بعملية الاختيـــار والانتقاء ، دون أن نرفضه كله تماما ، فنتخلف عن ركب التطور ، ودون أن نقبله كله بشتى محتوياته ، فنفقـد بذلك شخصيتنا العربية • وليكن رائدنا في ذلك القـول المشهور للمهاتما غاندي « يجب أن أفتح نوافذ بيتي لكي تهب عليه رياح كل الثقافات ، بشرط أن لا تقتلعني مـن جذوري » •

وهـذا الكتاب عرض موجز للمذاهب الفلسفيـة المعاصـرة في الغرب ، وهو ــ بالنسبة للمثقف العـربي العادي ــ يمثل احدى النوافذ التي تهب عليه منها رياح الثقافة الغربية • حاولنا أن نوضح في ثناياه مدى ارتباط نشأة كل مذهب فلسفي بالظروف الخاصة به في مجتمعه الغـربي ، مع استعراض أهم آراء مؤسسي المذهـب أو أشهر أعلامه •

ونأمل أن نقدم في دراسة أخرى تالية الموقف العربي النقـدي تجاه الفكر الغربي ، وذلك حتى نحافظ عـلى جذورنا العربية ، وحتى لا تقتلعها رياح الثقافة الغربية •

والله ولـي التوفيق ،،،

القاهرة في أول سبتمبر ١٩٧٣

سماح رافـع محمد

الفصل الأول

خصائص ومؤثرات الفلسفة المعاصرة

١ ـ ماهية الفلسفة المعاصرة والجديد فيها

أ ـ جرى العرف بين المؤرخين على اعتبار أن الفلسفة المعاصرة هي تلك الاتجاهات والمذاهب الفلسفية التي ظهرت مع بداية القرن العشرين تقريبا، والتي ازدهرت وأينعت في أرضه ، والتي عاش أعلامها جزءا كبيرا من حياتهم الفكرية فيه ، وذلك تمييزا لها عن فلسفة القرن التاسع عشر والثامن عشر خاصة ، والفلسفة الحديثة عامة، التي بدأت مع عصر النهضة الاوربي في حوالي القرن الخامس عشر •

ب ـ لكن ما علاقة الفلسفة المعاصرة في القرن العشرين بالفلسفات السابقة عليها ، سواء الفلسفة الحديثة والوسيطة منها أو اليونانية والشرقية القديمة ؟ هل هي منفصلة عنها تماما أم انها متصلة بها ومنبثقة منها ؟ الواقع أن غالبية اتجاهات ومذاهب الفلسفة الغربية المعاصرة جديدة فقط في مناهجها وطرق معالجتها لموضوعاتها المختلفة ، بينما معظم موضوعات تلك الفلسفة قديم ،

وتعرض لدراسته فلاسفة العصور السابقة، فيماعدا القليل من الموضوعات المرتبطة بالكشوف العلمية المعاصرة ٠

ولو ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الفكر الفلسفي منذ كان في صورته الروحية القديمة لدى الشرقيين ، ثم انتقاله الى الغرب لدى اليونان ليأخذ صورة عقلية ، وتطوره بعد ذلك الى المباحث الدينية في العصور الوسطى المسيحية والاسلامية ، فسوف نجد أن أغلب موضوعات الفلسفة قد تناولها هؤلاء الفلاسفة السابقون ، فالمباحث الخاصة بالروح والخلود وعلاقة الانسان بالآلهة والقوى الغيبية ، والضمير وعلاقة الانسان بالانسان ، والاخلاق وما يتصل بها ، كلها تقريبا كانت موضوعات أساسية عند مفكري الشرق القديم ٠ أما المباحث الطبيعية الخاصة بالعلم المادي ، وكذلك الموضوعات التي تدور حول العقل والنفس ، فقد تعرض لدراستها فلاسفة اليونان ثم الرومان ، حيث تناولوا بالبحث العلل الطبيعية وحاولوا تفسير حدوث الظواهر المادية ، الى جانب تحليل العقل البشري ومبادئه الأساسية وكيفية ادراك الأشياء ، مع التعرض للنفس الانسانية وعلاقتها بالجسد وصلتها بالعقل والطبيعة الخارجية ٠ أما في العصور الوسطى فقد تناول فلاسفة الاسلام والمسيحية الموضوعات الدينية والروحية التي لم يتعرض لها الفلاسفة السابقون بتوسع ، فبحثوا

في طبيعة الله تعالى وحقيقة النبوة وماهية الايمان والمعرفة الصوفية وغير ذلك من الموضوعات الدينية .

وفي العصر الحديث ظهرت الكشوف الجديدة في العلوم الطبيعية التي لم يكن السابقون قد عرفوها لقصور مناهجهم التجريبية ، وبذلك استطاعت الفلسفة الحديثة أن تتعرض لموضوعات جديدة مرتبطة بالكشوف العلمية خاصة منذ القرن العشرين ، حيث ظهرت فلسفات علمية عن الزمان والمكان والسببية والحركة والحتمية وغيرها مما يتصل بكشوف العلم الطبيعي . حقا قد يكون عدد من الفلاسفة القدماء تناول بالبحث بعض هذه الموضوعات، لكن ليس في صورتها العلمية التجريبية الحديثة .

جـ ـ ويجب ملاحظة أن فلاسفة كل عصر تال ، عادة ما يتناولون بالبحث الموضوعات التي تفلسف فيها السابقون عليهم ، ثم يزيدون عليها موضوعات جديدة ، فقد أخذ اليونان المباحث الروحية والاخلاقية التي كانت سائدة في الفكر الشرقي القديم ، وزادوا عليها مباحث عقلية وطبيعية جديدة ، ثم ورث فلاسفة العصور الوسطى هذا التراث القديم وتناولوه بالبحث مع اضافات جديدة تدور حول الدين والوحي والنبوة ، كما انهم عالجوا ـ في نفس الوقت ـ الموضوعات القديمة بطريقة أخرى

تتفـق مع الروح الدينية السائدة في العصر الوسيـط ، سواء كانوا مسيحيين أم اسلاميين . وفي العصر الحديث كانت حصيلة الفكر البشري خصبة متنوعة ، خاصة بعـد الاكتشافـات العلمية الغزيرة ، حيـث بحث الفلاسفـة المحدثون نفس موضوعات العصور القديمة والوسيطة ، بعد أن زادوا عليها الموضوعات العلمية التي تم اكتشافها حديثا في شتى مجالات الطبيعة والانسان .

وهكذا استنفد الفكر الفلسفي شتى موضوعاتـه الممكنة حتى منتصف القرن العشرين ، فهل لا يوجد جديد في الفلسفة المعاصرة ؟.

د ـ الواقع انه لا جديد فيها من حيث الموضوعات فقط ، لأنه أصبح من العسير تقريبا على فلاسفة القـرن العشرين أن يضيفوا موضوعات جديدة الى الفلسفة لم يتعرض لها السابقون عليهم ، وذلك الا في النادر القليل ، فهـل معنى ذلك أن لا يبذل الفلاسفة المعاصرون جهـدا جديدا في مجال الخلق الفلسفي ، ويقتصرون على فهـم وشرح ما تركه لهم السابقون ؟ بالطبع لا ، لان التفلسف جهد مفتوح باستمرار وقابل للتطور والنمو، لذلك أصبح الجـديد لدى الفلاسفة المعاصرون هو طريقة معالجتهـم نفس الموضوعات القديمة لكن بأسلوب جديد وفي اتجاه فلسفي مغاير للسابقين ، أي أن امكانية الخلق لدى هؤلاء

المعاصرين خاصة تتمثل في مناهجهم الجديدة التي استخدموها في اعادة صياغة كافة الموضوعات القديمة في صور جديدة •

ويؤكد المؤرخون أن أغلب الفلاسفة المعاصرين يبحثون في نفس موضوعات الفلاسفة القدماء حتى السابقين على سقراط ، ويعرفون أهميتهم ويحترمون جهودهم ، لكنهم يختلفون عنهم في المناهج وطرق المعالجة والجهد العقلي المبذول في اعادة فهم وتركيب تلك الموضوعات القديمة في صيغ وأبنية جديدة تتفق مع روح العصر الحالي ، وعلى هذا فان أغلب موضوعات الفلسفة المعاصرة قديمة ترجع الى عصور عديدة سابقة ، أما الجهد الجديد المضاف اليها فيتمثل في اعادة طريقة معالجة تلك الموضوعات وصياغتها في قوالب فلسفية مبتكرة لم تكن موجودة لدى الفلاسفة السابقين ، هذه هي السمة المميزة لاتجاهات الفلسفة في القرن العشرين ، وهي نفسها الصفة التي سوف نلاحظها بوضوح عند استعراض مذاهب الفلسفة المعاصرة •

٢ ـ الاحداث المؤثرة في الفلسفة المعاصرة

والآن ما هي الاحداث الهامة التي كان لها تأثيرها الواضح في نشأة الاتجاهات والمذاهب الفلسفية المعاصرة ؟

وما هو دورها في أن يتبع الفلاسفة المعاصرون مناهج جديدة وطرقا مغايرة للسابقين عليهم ، عند تناولهم موضوعات الفلسفة حاليا بما يتفق مع روح العصر ؟ ثم ما هي الاتجاهات والمذاهب الفلسفية التي ارتبطت بتلك الاحداث ؟

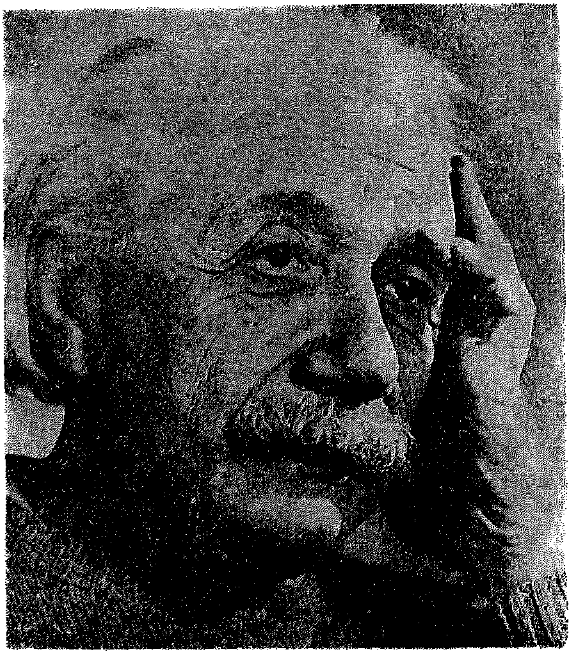
أ ـ أول تلك الاحداث وأهمها الثورة على فيزياء نيوتن ، أو الانقلاب على علم الطبيعة الكلاسيكي الذي وضع نيوتن مبادئه واكتشف قوانينه ، وكانت له السيطرة التامة على الفكر الاوروبي منذ القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين ، حيث ظهرت نظرية أينشتين عن النسبية وما تبعها من نظريات علمية حديثة أخرى •

كان علم الطبيعة النيوتوني في نظر فلاسفة القرن التاسع عشر خاصة يعتبر الصورة الصحيحة للعالم ، والتفسير الوحيد الصادق لكافة الظواهر المادية ، وقد ارتبط بأساس رياضي هو الهندسة الاقليدية التي تقوم على مصادرة رئيسية هي الاستواء في المكان أو الفضاء ، ومن ثم ظهرت في علم الطبيعة النيوتوني فكرة المكان المطلق والزمان المطلق مع الفصل بين كل منهما ، حيث ارتبط بهذا كله القول بالآلية والحتمية ، وقد انعكست هذه الافكار على المذاهب الفلسفية التي ظهرت فيما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر •

لكن مع بداية القرن العشرين حدثت ثورة كبيرة على علم الطبيعة النيوتوني الكلاسيكي بفضل اكتشاف أينشتين لنظرية النسبية ، التي قلبت أوضاع علم الطبيعة وغيرت كافة المفاهيم الخاصة به ، والحق أن نسبية أينشتين لم تلغ تماما قوانين نيوتن ، وانما احتوتها في هيكل كلي أوسع يفسر الكون كله وليس حركة الارض فقط ، وقد ارتبط بظهور النسبية اكتشاف الهندسات اللاأقليدية ، وانتفاء مفهوم الاستواء الذي حل محله مفهوم الانحناء الذي يتفق مع النظرة النسبية الشاملة للكون ، وقد استتبع هذا الامر رفض المطلق في المكان والزمان واستبداله بمبدأ النسبية ، كما أدت كشوف شرودنجر وماكس بلانك وغيرهما من علماء الطبيعة الذرية ، الى رفض مبدأ آلية الحركة ومبدأ الحتمية ، وأصبحت صورة علم الطبيعة في منتصف القرن العشرين مغايرة تماما لصورته عند نيوتن في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد أثر هذا بدوره على الفلسفات المعاصرة ، فأصبحت أغلب المذاهب حاليا ترفض فكرة المطلق وتثور على الآلية وتتمرد على الحتمية ، أي أن الثورة في علم الطبيعة الحالي ارتبطت بها ثورة مناظرة في الفلسفة المعاصرة ، نظرا لتشابك الفكر وتماسكه في كل عصر .

ب ــ وثاني تلك الاحداث الهامة المؤثرة في الفلسفة المعاصرة هو التقدم العلمي والمادي الكبير الذي أحرزته العلوم الطبيعية بواسطة المنهج التجريبي الذي بلغ أعلى مراحل تطوره حاليا ، والذي ظهرت ثماره المباشرة أمـام الجميـع ، حتى أصبحت حضارة القرن العشرين هـي حضارة العلم التجريبي الذي صبغها بأهم طابع مميز لها ، وكان نتاج ذلك أن أصبح المنهج التجريبي هو الاسلوب الـذي تحاول أن تحتذيه بقية العلوم الاخرى ، والـذي يسعى الانسان لأن يقتفي خطواته في تفكيره وسلوكـه اليومـي ، والأخذ بالمنهج التجريبي واتباع الاسلـوب العلمـي يعني بالضرورة أن تتحول العلوم حاليا الـى دراسـة الظواهر المادية المحسوسـة فقط التي يمكـن اخضاعها للمنهج التجريبي ، والتي يمكن أن نحرز مـن خلالها كل تقدم سريع وممكن •

من أجل هذا وجدنا غالبية العلوم الانسانية تتحول تدريجيا للأخذ بهذا المنهج ، وأصبح الواقع المادي هـو الحقيقة التي يسعى الانسان حاليا لكشف قوانينها عـن طريق المنهج التجريبي ، حتى الظواهر المعنوية الخاصـة بالانسـان ، حاول العلماء تفسيرها بردها الى جوانـب ماديـة في الجسم الانساني ارتبطـت بها وعملت علـى ظهورهـا ، وذلك كما فعل علماء النفس من أصحـاب



« ألبرت أينشتين »

مؤسس نظرية النسبية

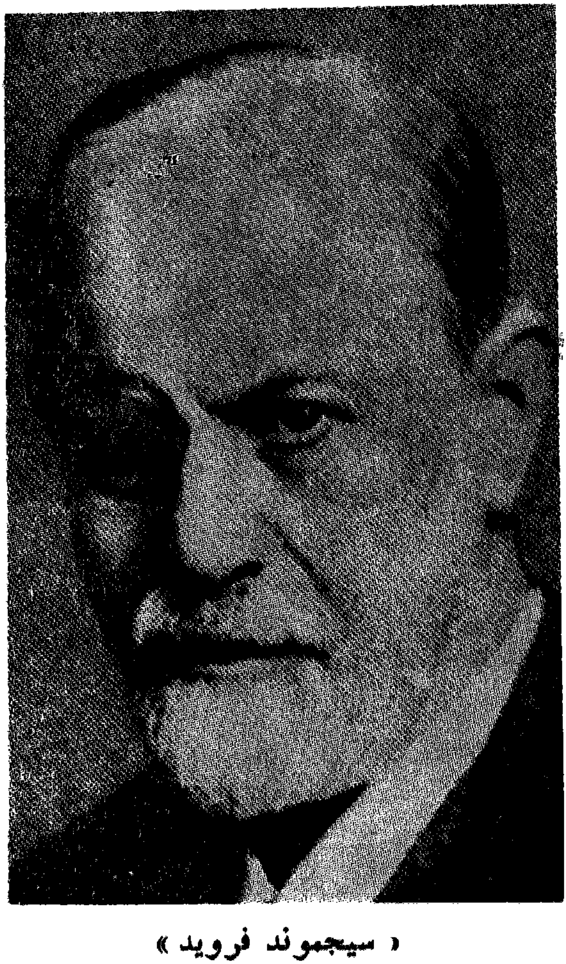
١٨٧٩ – ١٩٥٥

المدرسة السلوكية وغيرهم • كل هذا التقدم العلمي المادي في العلوم الطبيعية والانسانية أدى بالضرورة الى ظهور اتجاهات فلسفية علمية مادية ، وساعد على كثرة المذاهب الواقعية في الفلسفة المعاصرة •

جـ ـ وثالث أحداث القرن العشريـن الهامة يرتبط تمامـا بالاحداث السابقة ، ويتمثـل في الايمان بقيمـة الرياضة ، والرجوع الى التحليل الرياضي الذي يمثل دقة التفكير ، حقا كان السابقون قد عرفوا أهمية الرياضة ، لكنهم لم يدركوا خصوبتها واكتفوا بما وضعه أقليدس قديما من هندسة مستوية أقام عليها نيوتن علم الطبيعـة الكلاسيكي، لكن ظهرت حديثا هندسات لاأقليدية أخرى مثل هندسة ريمان وهندسة لوباتشفسكي وغيرهما ، وهي الهندسات الجديدة التي أقام عليها أينشتين علم الطبيعة الحديث ، كما أن ظهور تلك الهندسات اللاأقليدية أثـار مشكلة اليقين الرياضي والرجوع الى منهج التحليل لفض مضمـون المدلولات الرياضية ومعرفة حقيقة بديهياتهـا وكيفية التوصل الى اليقين الكامن فيها ، وقد أدت هذه الامور كلها بعلماء المنطق الصوري الى القيام بمحاولـة للجمع بين خصوبة التحليل الرياضي ودقة المنطق القديم في هيئة علم جديد هو « المنطق الرياضي » أو « المنطـق الرمزي » ، وقد امتد تأثير هذه الاحداث أيضا الى كثير

من مذاهب الفلسفة المعاصرة التي اتبعت أسلوب التحليل الرياضي واتخذت لنفسها ثوبا رياضيا تحليليا جديدا •

د ـ ورابع الاحداث الهامة المعاصرة كان بمثابة رد فعل للتقدم العلمي المادي الذي اصطبغت به حضارة الغرب حتى كاد الانسان نفسه يصبح مجرد « شيء » مادي مثل بقية ظواهر الطبيعة ، وان كان أكثرها تعقيدا، وهذا يتنافى مع الطبيعة الحية للانسان التي تختلف جوهريا عن طبيعة العالم الجامدة ، لذلك وجدنا عددا من المفكرين يقومون بثورة أخرى مضادة للثورة العلمية السابقة ، يسعون من خلالها الى رد اعتبار الانسان لنفسه • ويرفضون النظر اليه كظاهرة طبيعية مادية ، لان الانسان في جوهره طاقة حيوية متجددة ، بل وان الجسم نفسه يرتد أخيرا الى آلاف الملايين من الخلايا الحية ، كما حاول هؤلاء المفكرون تأكيد قيمة المثل الروحية التي تميز بها الانسان ، والتي يجب أن نعطيها حقها فيالحياة والنمو دون الانجراف في التيار المادي الآلي ، ونلاحظ أن تلك الثورة الانسانية لم تأخذ شكلا منظما تسير فيه ولا حدثا معينا تبدأ منه ، وانما ظهرت تلقائيا وبالتدريج كرد فعل للتقدم المادي الحالي ، وقد كان لهذا الاتجاه أيضا تأثيره الكبير في ظهور عدة فلسفات جديدة للحياة ومذاهب روحية أخرى معاصرة •



« سيجموند فرويد »

مؤسس التحليل النفسي

١٨٥٦ – ١٩٣٩

هـ ــ وأخيرا كان ضمن أحداث القرن العشرين التي أثــرت بعمق كبير ليس فقط في الفلسفة وعلم النفــس ، وانما أيضا في الفن والادب والفكر الانساني عامة ، هو تحليل « سيجموند فرويد » للعقل الانساني ، واكتشاف اللاشعور وبيان دوره في توجيه سلوك الافراد وفي تفسير كافة أعمالهم ، ثم في توضيح حقيقة أن اللاشعور بكل ما يشتمل عليه من دوافع عدوانية وبدائية هو الذي يسيطر علــى الانسان • لقد كان الناس جميعا ، وكذلك كافــة المفكــرين والفلاسفة حتى عصر فرويد ، يعتقــدون أن الانسان يسير بمقتضى أحكام العقل فقط ، وانه كائن ذو مرتبــة سامية يختلف جوهريا عن الحيوان وكذلك عــن الانسان البدائي القديم •

لكن جاء فرويد ليحطم هــذه الصورة الجميلة عن الانسان ويخلع عنه الثوب المزركش ، ثم يبرز حقيقتــه العدوانية التي تمثل جزءا جوهريا في تكوينه العقلي ، كما أنه كشف الستار عن عالم كبير مجهول في الانسان هــو أكثر رحابة وخصوبة من عالم الشعور الظاهر ، ذلك هو اللاشعــور ، الذي يعتبر من وجهة نظر فرويد السلطــة الحقيقية المسيطرة على سلوك الانسان ، وهو المرآة التي يمكن للفرد أن يستكشف من خلالها ذاته ، وقد كان لهذا الاكتشاف صداه الكبير في الفكر المعاصر عامة حيث تحول

الفلاسفة لدراسة حقيقة الانسان وعملوا على فض مضمونه الداخلي ، وظهرت مذاهب فلسفية متعددة اهتمت بالانسان وحاولت تفسير وجوده وسلوكه بنظرة جديدة واقعية خالية من كل تطرف مثالي •

٣ ـ الاتجاهات والمذاهب الفلسفية الرئيسية المعاصرة

أ ـ والآن بعد استعراض أهم الاحداث المعاصرة وبيان مدى تأثيرها على الاتجاهات والمذاهب الفلسفية في القرن العشرين ، نريد تحديد أهم تلك الاتجاهات وأبرز هذه المذاهب ، تمهيدا لاستعراض آراء أصحابها • والواقع أن الفلسفة المعاصرة تميزت عن فلسفات العصور السابقة عليها بالغزارة والتعدد ، فلم يحدث في أي عصر سابق منذ اليونان والرومان ثم العصور الوسطى حتى العصر الحديث ، ان ظهر مثل هذا العدد الكبير من الاتجاهات والمذاهب الفلسفية في العالم الغربي ، وهذا راجع الى عدة أسباب في مقدمتها أن الفلسفة المعاصرة هي حصيلة تجميع لشتى الفلسفات السابقة عليها ، مع اعادة صياغتها في أسلوب جديد وطريقة مبتكرة، بالاضافة الى أنالفلسفة أصبحت حاليا جهدا عقليا مفتوحا غير مقيد بموضوع محدد ولا مرتبط بمنهج معين ، كما كان الحال في عصور الفلسفة السابقة • وأخيرا فاننا نعيش في القرن

العشرين حياة متطورة ونرتبط باكتشافات حضارية متجددة تدفع الفرد لان يفكر في جذورها وثمارها ، وتجعل الفلاسفة يحاولون اللحاق بها لتفسيرها ، سواء كانت تلك الكشوف تدور حول ظواهر طبيعية أم انسانية • حيث أن التفلسف كظاهرة حضارية يرتبط حتميا ببقية ظواهر الحضارة مهما تنوعت فيما بينها واختلفت •

ب ـ وسوف نختار في دراستنا هنا أهم الاتجاهات والمذاهب الفلسفية المعاصرة ـ دون أن نحصرها كلها ـ وذلك لنوضح كيف أنها تعبر عن روح العصر المتطور ، ولنبين كيف أنها انعكاسات لاحداث حضارية تميز بها القرن العشرين وحده ، ولكي نؤكد أيضا صحة الفكرة السابقة عن أن معظم الابتكارات الفلسفية المعاصرة أصبحت تتمثل في الاسلوب والطريقة التي يعالج بها الفيلسوف الموضوعات التي كانت موجودة من قبل لدى الفلاسفة السابقين ، لكن بشكل جديد يساير أحداث القرن العشرين ويتفق مع ظروف المجتمع الغربي المعاصر •

وتتضمن الفصول التالية عرضا للاتجاه المادي العلمي عند الماركسية والبرجماتية ، ثم رد الفعل كما يبدو في الاتجاه الروحي الحيوي عند برجسون ، كما سنعرض الاتجاه التحليلي الرياضي عند راسل وهوسرل ، ثم رد

الفعل الذي يتمثل في الاتجاه الانساني عند الوجودية والبنائية . وسنكتفي بايجاز رأي الفيلسوف المؤسس أو أشهر فيلسوف في كل مذهب ، باعتباره الاطار العام الذي سار عليه بعد ذلك التلامذة والتابعون .

الفصل الثاني

الماركسيّة عند فلاديمير لينين

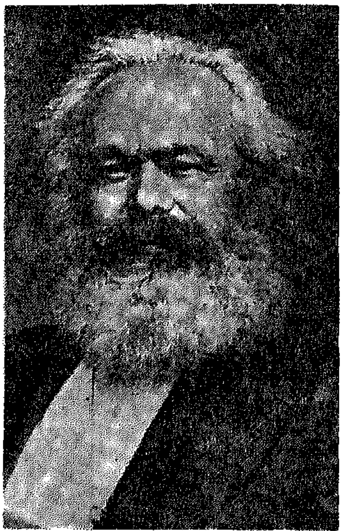
١ ـ نشاة الماركسية وتاسيسها عند ماركس وأنجلز

أ ـ ترتد الماركسية في اشتقاق اسمها لغويا الى « كارل ماركس » الذي وضع أول مبادئها وأرسى قواعدها بالاشتراك مع صديق عمره وفكره « فردريك أنجلز » . وماركس ألماني الاصل ، عاش في الفترة من ١٨١٨ الى ١٨٨٣ وكان والداه يهوديين ثم اعتنقا المسيحية ، وقد درس ماركس الفلسفة في جامعات بون وبرلين وفيينا ، وكان من المعجبين بفلسفة هيجل ، خاصة الجزء المتعلق بالجدل ، لكنه في نفس الوقت كان يرفض مثاليته المطلقة ، لانه كان مادي النزعة . وقد عمل في الصحافة بعد تخرجه ، ثم سافر الى باريس حيث تعرف على بعض الفلاسفة الاشتراكيين ، كما تعرف أيضا على صديقه « فردريك أنجلز » الذي ظل يلازمه طوال حياته، حيث اشتركا معا في الهجوم على الفلسفة المثالية والنظام الرأسمالي .

وكانت أهم مؤلفات ماركس هي : « فقر الفلسفة »

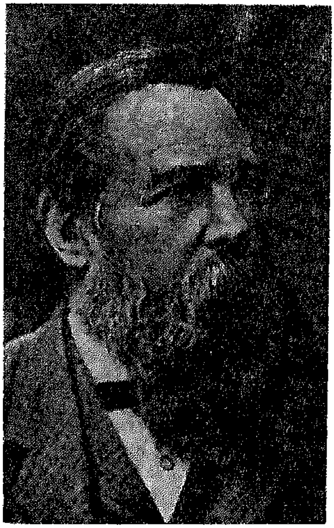
١٨٤٧ ويــرد فيه علــى الفيلسوف الفرنسي بــرودان ، « الاقتصاد السياسي والفلسفة » ١٨٤٤ « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » ١٨٥٩ «الأجور والأسعار والارباح» ١٨٦٥ « رأس المال » ١٨٦٧ وهو أهم مؤلفاته وأكثرها شيوعــا وتأثيرا • وذلك بالاضافــة الى عدد آخر مــن المؤلفــات التي وضعها منفردا ، ثم مجموعة أخرى قــام بتأليفها بالاشتراك مع أنجلز مثل «العائلة المقدسة» ١٨٤٥ وهــو نقد للشبان الألمان الذين تابعــوا مثالية هيجــل ، « الأيديولوجية الألمانية » ١٨٤٦ وهو استكمال لنقــد مثالية الفلسفة الالمانية ، ثم « البيان الشيوعي » ١٨٤٨ الذي يضم الأسس الرئيسية للشيوعية •

ب ــ أما « فردريك أنجلز » فكان ألماني الاصــل أيضا لكن من أثرة ثرية جدا ، وعاش في الفترة من ١٨٢٠ الى ١٨٩٥ ، وهو لم يكمل دراسته الجامعية ، وانما ساعد والده في ادارة شركاته المختلفة خاصة في انجلترا ، حيــث تقابل هناك مع أقطاب الاقتصاد الرأسمالي وشاهد بنفسه الآلام التي عانى منها أفراد الطبقة العاملة بسبب مساوىء الرأسمــالية ، فبدأ ينسلخ فكريا عن طبقته وشرع فــي دراسة الاشتراكية ، وكان من المعجبين بالجدل الهيجلــي والرافضين لتلك المثالية المطلقة في الفلسفة ، وذلك مثــل مــاركس تماما ، كما كان مادي النزعة لانه عاش عــصر



كارل ماركس

١٨١٨ — ١٨٨٣



فريدريك انجلز

١٨٢٠ — ١٨٩٥

الانقلاب الصناعي والثورة العلمية والآلية ، خاصة في انجلترا • وعندما ذهب الى باريس للتعرف على الفلاسفة الاشتراكيين قابل هناك صديق عمره « كارل ماركس » وتوطدت بينهما الصداقة بعد ذلك بسبب وحدة تفكيرهم واتفاق أهدافهم في الهجوم على الفلسفة المثالية وتقويض النظام الرأسمالي •

وكانت مطالعات أنجلز ودراساته عديدة متنوعة ، شملت العلوم الطبيعية والسياسية ، الى جانب الاقتصاد والفلسفة والاجتماع • وقد أصدر عديدا من الكتب أهمها : « حالة الطبقة العاملة الانجليزية » ١٨٤٤ « ضد دوهرنج »١٨٧٨ « جدل الطبيعة » ١٨٧٨ « الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية » ١٨٨٠ « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » ١٨٨٥ « لودفيج فويرباخ ونهاية الفلسفة الالمانية التقليدية » ١٨٨٨ • وذلك الى جانب مجموعة أخرى من الدراسات المتنوعة • بالاضافة الى اشتراكه مع ماركس في تأليف « العائلة المقدسة » ١٨٤٥ « الأيديولوجية الالمانية » ١٨٤٦ « البيان الشيوعي » ١٨٤٨ •

وقد أصبح ماركس وأنجلز بعد ذلك أول مؤسسين للشيوعية الحديثة التي أصبحت تعرف باسم «الماركسية» والتي بدأت من ألمانيا في النصف الثاني من القرن التاسع

عشر ، ثم تابعهما في نفس الاتجاه لينين وغيره من مفكري القرن العشرين ، الذين اهتدوا جميعا بمصادر الماركسية وبآراء ماركس وأنجلز •

أولا : لقد تأثر ماركس بالفلسفة الالمانية المادية التي كانت سائدة في عصره ، وفي نفس الوقت أخذ من هيجل الجدل بعد أن صحح وضعه من وجهة نظره ، لقد كان هيجل يبدأ الجدل من الفكرة ويجعل الواقع نتاجا لها، أما ماركس فبدأ الجدل من الواقع المادي وجعل الفكرة نتاج الواقع المادي ، وقد أدى هذا بماركس الى القول بالمادية الجدلية في تفسيره كافة حقائق الوجود والطبيعة والانسان ، فالمادة هي الحقيقة الوحيدة في العالم ، وقد تطورت في مراحل جدلية لتظهر منها كل أشكال الوجود، حتى الانسان نفسه وتفكيره وكذلك المجتمع ، انها كلها انعكاسات للمادة التي ترتد اليها والتي يبدأ منها الجدل ، فالمادة أسبق من الفكرة وهي أصل وجودها •

ثانيا : أما المصدر الثاني الذي تأثر به ماركس فكان الاقتصاد السياسي الانجليزي الذي ساد انجلترا بالذات بعد الانقلاب الصناعي ، والذي وضع أسسه « آدم سميث » و « دافيد ريكاردو » وكانا أول من أثارا نظرية القيمة في العمل دون أن يكملاها ، حيث أساء الرأسماليون تفسيرها ، وأصبح هدف الاقتصاد عندهم

هو تشغيل العمال في انتاج البضائع مقابل أجر بسيط لا يوازي جهد العامل ، بينما يحصل صاحب رأس‌المال على كل ثمار العمل وحده ، وقد رفض ماركس هذا التفسير المغرض وقرر أن قيمة الانتاج في العمل مرتبطة بالوقت اللازم له وبحاجات العامل الاساسية في الحياة ، ثم قرر في نظريته عن فائض القيمة أن العامل في المجتمع الرأسمالي اذا كان يعمل للانتاج اثنتا عشرة ساعة يوميا مثلا ، فانه يحصل على أجر يوازي عمل ست ساعات فقط ، بينما جهده في الست ساعات الباقية يمثل انتاجا فائضا يعود بالفائدة على صاحب رأس المال وحده ، وبتراكم رأس المال لدى بعض الافراد تزداد الفروق الطبقية بينهم وبين العمال ، لذلك يجب أن تكون المصانع والاراضي وكل وسائل الانتاج ملكا لمن يعملون فيها ، حتى يعود الفائض كله عليهم بالفائدة ، ومن ثم ينمحى الفروق الطبقية .

ثالثا : وأخيرا كانت المذاهب الاشتراكية الفرنسية هي المصدر الثالث لتكوين الماركسية ، فقد نادى « سان سيمون » و « فوريبه » الفرنسيان باقامة مجتمع اشتراكي مثالي كامل ، يخلو من احتكارات الرأسماليين ويحقق الرفاهية لكل أفراد المجتمع ولا تظهر فيه أية فروق طبقية ، لكنهما للأسف كانا متطرفين في أفكارهما ولم يعرفا كيف يمكن تحقيقها ، لأن اشتراكيتهما كانت خيالية،

لكن جاء ماركس وعرف كيف يمكن تحويل تلك الاشتراكية من الشكل الخيالي الى الشكل العلمي ، وحدد كيف يمكن تنفيذها واقعيا ، وذلك عن طريق تحالف كل قوى الطبقة العاملة في المجتمع ثم انتزاعها ملكية وسائل الانتاج من الرأسماليين المغتصبين وارجاعها للشعب ثانية ، حيث تتولى بعد ذلك الطبقة العاملة مقاليد الحكم وتمارس دكتاتورية مؤقتة في مرحلة التحول، حيث يمكن بعد ذلك تحقيق الرفاهية لكل أفراد المجتمع ، ويصبح المجتمع الاشتراكي المثالي مجتمعا حقيقيا ، وتنتهي دكتاتورية الطبقة العاملة •

تلك هي المكونات الاساسية للماركسية التي شملت شتى مجالات الفلسفة والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، والتي نشأت وترعرعت في أوربا خلال القرن التاسع عشر ، وهي نفسها التي تأثر بها بعد ذلك الفيلسوف والمفكر الروسي « فلاديمير لينين » وقام بتطبيقها عمليا في روسيا منذ بداية القرن العشرين مع اجتهادات أخرى خاصة به ، حيث أصبحت الماركسية بعد ذلك اتجاها عالميا له فلاسفته المشهورين في الوقت الحاضر ، وغالبيتهم يسيرون في نفس طريق ماركس وأنجلز ولينين ، ويسعون لتحقيق نفس الاهداف السابقة •

٣ ـ حياة لينين ومؤلفاته

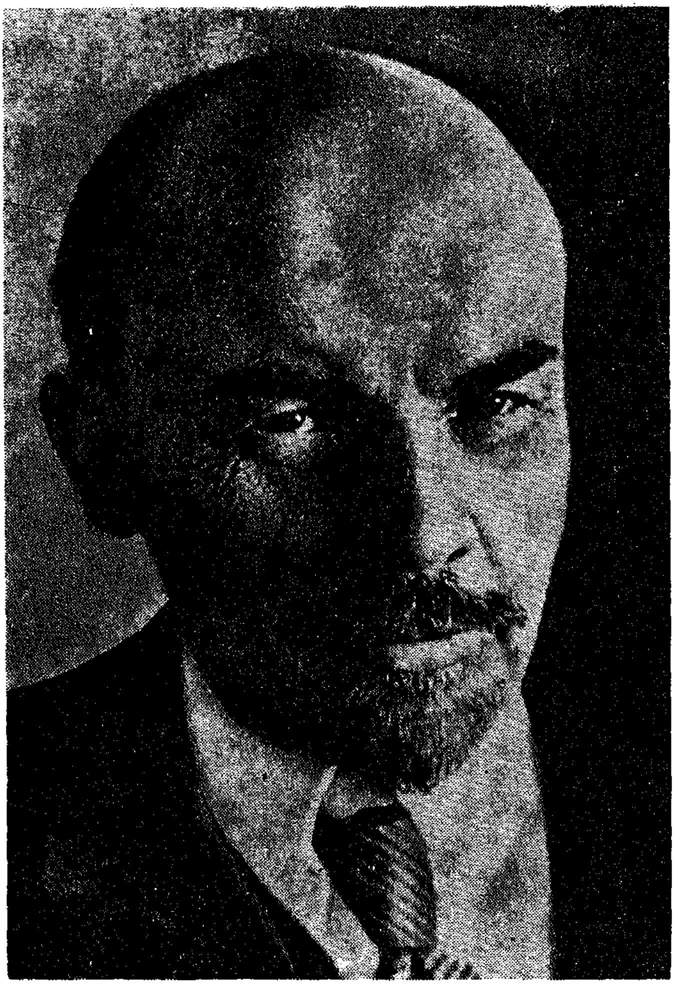
أ ــ كـان « فلاديمير لينين » أشهر الماركسيين الروس الذين حملوا لواء الدعوة للفلسفة المادية والاشتراكية العلمية ، وهو حلقة الوصل بين ماركسية القرن التاسع عشر وماركسية القرن العشرين • وهو مولدد عام ١٨٧٠ ببلدة « سميرسيك » الروسية من أسرة متوسطة الحال ، وفي وقت كان القيصر الروسي يمثل الدكتاتورية الفردية في أعلى مراتبها ، كما كان النبلاء الروس يمثلون الاقطاع والرأسمالية في أقصى تطرفهما ، الأمر الذي أدى بالشعب الى التذمر ومحاولة الثورة على القيصر •

وقد نشأ لينين في هذا الجو الثوري وتشبع به منذ طفولته ، خاصة أن أخاه الاكبر كان ثوريا واشترك في محاولة فاشلة لقتل القيصر ثم حكم عليه بالاعدام ، فبدأ لينين يسير في طريق أخيه ويتجه الى النضال السياسي منذ بداية حياته الجامعية ، حيث درس القانون في جامعة بطرسبرج ، لكنه تحول بعد تخرجه لدراسة الفلسفة الماركسية بالذات ، التي وجدها أصلح الفلسفات الثورية للتطبيق في مجتمعه الروسي، واتخذ لنفسه طريق الثورة العلمية التي تعتمد على توعية أفراد الطبقة العاملة

بالنظريات الاشتراكية والمبادىء الديمقراطية ، تمهيدا لتجميعها في قوة واحدة يمكنها حينئذ الاستيلاء على الحكم • لكن الحكومة القيصرية قبضت عليه ونفته الى سيبيريا مدة من الزمن ، عاد بعدها الى ممارسة حياته السياسية سريا •

ثم غادر لينين روسيا ليتنقل بين بعض الدول الاوربية وينشر دعوته لتوحيد الماركسيين ، ويعقد المؤتمرات الاشتراكية المختلفة ، ويدير من الخارج التنظيمات الشيوعية داخل روسيا ويدفعها للثورة والحصول على الحكم ، وقد نجح في محاولاته تلك حيث قامت الثورة في روسيا عام ١٩١٧ وتولى العمال الحكم، وعاد لينين ليقود الدولة الجديدة مهتديا بمبادىء ماركس وأنجلز التي نجح في تطبيقها وتطويرها ، واستطاع أن يسير بالدولة في طريق التقدم والاشتراكية بعبقرية فذة لم يكن لها نظير عند غيره • ثم توفي عام ١٩٢٤ ليتابع من جاؤا بعده نفس الطريق الماركسي اللينيني الثوري •

ب ــ رغم مشاغل لينين في السياسة والنضال والحكم ، وجهوده في تطوير الاقتصاد والصناعةوالزراعة، رغم هذا كله كان لينين فيلسوفا من الطراز الاول وعالما متبحرا ومفكرا نظريا واسع الاطلاع ، أخرج العديد من



فلاديمير لينين

١٨٧٠ — ١٩٢٤

المؤلفات التي تتناول بالدراسة شتى هذه المجالات السابقة • وأهم مؤلفاته هي : « تطور الرأسمالية في روسيا » ١٨٩٩ « ما العمل » ١٩٠٢ « المادية ومذهب النقد التجريبي » ١٩٠٩ « إفلاس الأممية الثانية » ١٩١٥ « الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية » ١٩١٦ « الدولة والثورة » ١٩١٧ « دكتاتورية البروليتاريا أو الطبقة العاملة » ١٩١٩ « ماركس وأنجلز والماركسية » ١٩٢٠ « كراسات فلسفية » ١٩٢٣ • وذلك بالاضافة الى عشرات أخرى من الدراسات والمقالات العميقة والمتنوعة ، التي بسط فيها لينين شتى آراءه وأفكاره ، سواء في عرض وشرح الماركسية ، أو في تطويرها وتطبيقها في روسيا •

وهو في كل أعماله تلك لم يكن مجرد ناقل من الماركسية ، وانما كان أيضا مبتكرا لكثير من النظريات فيها ، وذلك سواء في تحليلاته الفلسفية للمبدأ المادي والجدل الهيجلي الماركسي ، أو في آرائه السياسية عن الحزب وتحالف العمال والفلاحين، وحل مشكلة القوميات في روسيا ، وربطه بين الثورة الاشتراكية وحركات التحرر الوطني عامة ، أو في مباحثه الاقتصادية عن الاحتكارات والعمل والعمال • وسوف نكتفي في الفقرة التالية بايجاز آراء لينين عن الفلسفة المادية والمنهج الجدلي ، والتي

كانت كلها انعكاسات للتقدم العلمي الذي بدأت ثماره تظهر في عصره •

٤ ـ خلاصة آراء لينين وأفكاره

أ ـ ارتبطت مادية ماركس وأنجلز بالكشوف الجديدة في العلم حتى عصرهما فقط ، والتي كانت كلها بمثابة تأكيد للمادية ، وكانت أشهر تلك الكشوف هي : اكتشاف الخلية الحية واكتشاف تحول الطاقة ثم اكتشاف نظرية التطور ، وقد حاول أنجلز اثبات صحة الجدل الهيجلي بتطبيقه على تلك المكتشفات العلمية الجديدة التي لم تكن قد ظهرت أيام هيجل ، وكان اكتشافها بعد ذلك في عصر أنجلز بمثابة دليل على صحة الجدل الهيجلي عند تطبيقه على الطبيعة ، وقد ساعدت هذه الكشوف أيضا على تطبيق الاتجاه المادي القديم •

لكن عندما جاء لينين ظهرت اكتشافات أخرى جديدة خاصة في علم الطبيعة ، جعلت بعض الفلاسفة يتجهون الى المذهب المثالي في تفسير الطبيعة بدلا من المذهب المادي ، مثل مقدمات اكتشاف الذرة ومكوناتها من الكهيربات ، ورد المادة الى الطاقة ، وغيرها مما جعل الفلاسفة وبعض العلماء المعاصرين للينين يقرون أن المادة

عند تحليلها لا تكون مادة ، وانما تصبح لا مادة ، ومن ثــم تحولوا عن المادية الى نوع من المثالية ، فقام لينــين بمحاولة أخرى جديدة ــ مثل محاولة أنجلز السابقــة ــ يؤكد بواسطتها وجود المادة لكن حسب المعنى الحديث لها ، كما حاول أن يستدل من تلك الكشوف مدى صحة المنهج الجدلي الهيجلي •

ب ــ بدأ لينين أولا ينقد المادية التي كانت موجودة لدى فلاسفة وعلماء القرن التاسع عشر ، فقرر انها مادية آلية متخلفة عن الكشوف الحديثة ، كما انها مادية جامدة غير جدلية لم تعمل حسابا للتطور المتماسك ، وأخيرا فهي مادية مبتذلة لم تفهم جوهر الانسان والعلاقات الداخلية فيها • من أجل هذا كله كانت المادية القديمة استاتيكيــة جامدة تقتصر على تفسير العالم دون القدرة على تغييره ، بينما المادية الحقيقية جدلية متطورة ، وهذا ما لم يتنبه له العلماء والفلاسفة المعاصرون له ، الذين انبهروا بالكشوف العلميةالجديدة وقرروا أن المادة ليست موجودة، فاتجهوا بذلك الى نوع من المثالية •

لكن لينين يقرر أن تلك الكشوف الجديدة للراديوم المشع والذرة وغيرها ، كلها بمثابة تأكيد للمادية من خلال المنهج الجدلي ، اذ أن حركة المادة وتطورها هي الحقيقة الجدليــة الوحيدة ، بينما القول بجمــود المادة وثباتهــا

مناقض للمنهج الجدلي . وطالب لينين علماء الماركسية وفلاسفتها ضرورة تفسير المنهج الجدلي تفسيرا ماديا يتطابق مع الطبيعة المتطورة دائما، حيث أن هذا كله يؤكد صحة مفهوم « المادية الجدلية » الذي هو جوهر الماركسية، وحيث يلتحم الجدل بالمادة في وحدة متماسكة يمكن من خلالها تفسير العالم والانسان معا في كل حالات التغير والتطور مهما كانت معقدة .

وهكذا كان « لينين » في بداية القرن العشرين خير ممثل للفلسفة الماركسية المادية بمنهجها الجدلي ، معبرا بذلك عن روح العصر ، متمشيا مع أحدث التطورات العلمية ، حتى تلك التي ظهرت بعد وفاته .

الفصل الثالث

البراجماتية عند وليام جيمس

١ ـ طبيعة البراجماتية وظروف نشأتها

أ ـ البراجماتية فلسفة علمية انبثقت من الروح المادية للقرن العشرين ، وارتبطت بتطور مناهج البحث العلمية والاتجاهات الواقعية المعاصرة ، وهي أمريكية النشأة رأسمالية الاتجاه ، والبراجماتية تتفق مع الماركسية في الارتداد الى المادة والواقع وفي استخدام الاسلوب العلمي • لكنها تختلف عنها جوهريا فيمدلولها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لانها تمثل فلسفة المجتمع الرأسمالي • وكلمة البراجماتية في أصلها اللغوي مشتقة من كلمة يونانية تعني العمل النافع أو المزاولة المجدية ، ويصبح المقصود منها هو « المذهب العملي » أو « المذهب النفعي » •

وتحارب البراجماتية المذاهب المثالية في نزاعها مع الواقعية ، وترفض بحث مشكلة أسبقية الفكر على الواقع أو العكس ، لأن فلاسفتها يريدون أن يجعلوا نظرية المعرفة أداة للعمل ووسيلة للاستفادة من الواقع والسيطرة

عليه بدلا من النزاع حوله ، لذلك كانت البراجماتية منهجا علميا قبل أن تكون فلسفة ميتافيزيقية ، وهي طريقة للعمل والممارسة ، وليست نسقا عقليا مجردا ، وأصبحت قيمة الافكار ليست كامنة في طبيعتها ، وانما فيما ينتج عنها من آثار عملية تفيدنا في حياتنا ، كما أن الحقيقة أصبحت تقاس ليست بمدى تناسقها في عقولنا ـ كما يقول المثاليون ـ ولا بمدى تطابقها مع الواقع الخارجي ـ كما يقول الواقعيون ـ إنما حقيقة الفكرة تتمثل في الممارسة العملية التي تدفعنا للقيام بها ، وبمدى النفع الذي سيعود علينا منها .

ب ـ وقد نشأت البراجماتية كمذهب عملي نفعي في أمريكا مع بداية القرن العشرين ، وساعد على نشأتها انتشار استخدام الطريقة العلمية وما ترتب عليها من نفع عملي وتقدم صناعي ، راجع الى قدرة الانسان على فهم الطبيعة والسيطرة عليها والاستفادة منها . هذا بالاضافة الى أن البراجماتية وجدت في النظام الرأسمالي الامريكي خير تربة للنمو والازدهار ، لان الرأسمالية عامة تقوم على مبدأ المنافسة الفردية الحرة التي يرتبط بها العمل المنتج النافع ، كما أن هذا النظام الرأسمالي يؤكد اتجاه الامريكيين ـ ليس الى فهم الواقع لذاته أو بحث مدى أسبقية الفكر على الواقع ـ وانما الاتجاه الى فهم الواقع

لاستغلاله والسيطرة عليه ، سعيا وراء المنافع التي ستعود عليهم من ذلك .

لذلك كان المؤسسون لهذا المذهب وأغلب فلاسفته من الامريكيين الذين انتشرت أفكارهم بعد ذلك في بقية أنحاء العالم ، وأصبح لهم أتباع كثيرون من الفلاسفة خارج أمريكا . وقد كان المؤسس الاول لهذا المذهب هو الفيلسوف الامريكي « بيرس » الذي وضع الافكار الاولى فقط للمذهب ، حيث قرر أن كل فكرة لا بد أن تكون تمهيدا لعمل ما . ثم جاء بعده « وليام جيمس » ليقيم بناء المذهب ويؤكد أن العمل والمنفعة هما مقياس صحة الفكرة ودليل صدقها ، وظهر بعد ذلك « جون ديوى » ليتم بناء المذهب ويقرر أن العقل هو أداة العمل ووسيلة المنفعة .

٢ ـ تأسيس البراجماتية عند « بيرس » وتلامذته

أ ـ فيما يختص بالمؤسس الاول للبراجماتية وهو « تشارلس بيرس » (١٨٣٩ ـ ١٩١٤) فقد كان محاضرا للفلسفة في جامعة هارفارد الامريكية ، وكان متأثرا بكانط مع اهتمامات عميقة بعلم المنطق والاخلاق ، وكان أول من ابتكر كلمة « البراجماتية » في الفلسفة المعاصرة ، وذلك

عندما تعرض لبحث مشكلة المعرفة . فقرر أنه توجد في عقولنا أفكار متعددة لها مقابلات مادية في العالم الخارجي، ومعيار صدق هذه الافكار أو كذبها يكون في مدى تطابقها أو عدم تطابقها مع مقابلاتها الخارجية. لكن يوجد في نفس الوقت نوع آخر من الافكار داخل عقولنا ليس لها مقابل مادي خارجي ، اذن ما هو معيار الحكم عليها بالصدق أو الكذب ؟ أجاب بيرس بأن تلك الافكار اذا كانت تمهد للقيام بسلوك عملي وتهدف الى تحقيق منفعة فعلية ، فانها تكون حينئذ صادقة ، وبدون ذلك تكون كاذبة .

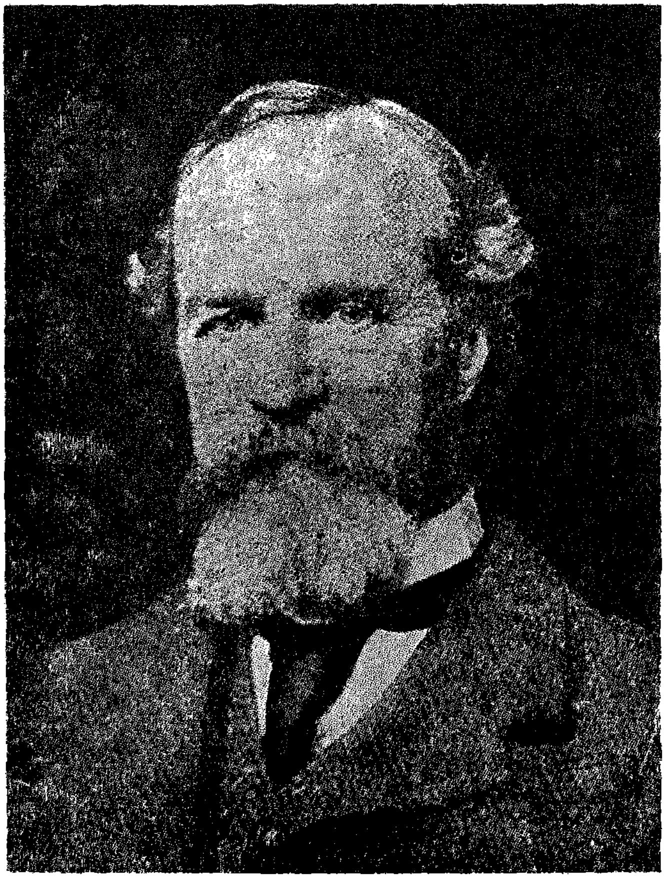
مثلا فكرة وجود الله ، هل هي صادقة أم كاذبة ؟ انني لا أستطيع أن أبحث لها عن مدلول مادي خارجي يمكنني بواسطته أن أحكم على مدى مطابقتها لأتأكد من صدقها ، وانما يكون حكمي على صدق أو كذب هذه الفكرة من الآثار المترتبة عليها ، ومما يمكن أن تؤدي اليه من سلوك عملي نافع لدى الافراد والمجتمع ، وحيث أن ايمان الافراد بفكرة وجود الله، يدفعهم للاصلاح والتقوى والمعاملة الحسنة ، الى جانب الاستقامة وعمل الخير والتعاون ، وهذه كلها أنماط متعددة من السلوك العملي النافع ، اذن تكون فكرة وجود الله صحيحة وليست خاطئة .

ب ــ وهكذا جعل « بيرس » الافكار دليلا للعمل وتوجيه السلوك وحفز النشاط ، وأصبحت الفكرة عنده ليست صحيحة أو كاذبة في حد ذاتها ، وانما الفكرة مجرد مشروع أو خطة عمل ، فاذا نجح المشروع أو العمل في تحقيق كافة أهدافه عمليا ، كانت الفكرة صحيحة ، واذا لم يتحقق شيء اطلاقا كانت الفكرة خاطئة . وعلى هذا وجدنا « بيرس » قد غير مفهوم الصدق والكذب الذي سار عليه الفلاسفة والمناطقة التقليديون ، وربط الصدق أو الكذب بالنتائج العملية المترتبة على الافكار نفسها ، كما جعل صدق الفكرة يتمثل في امكانيات العمل الكامنة فيها ، وفي المشروعات العملية التي يمكن أن تؤدي اليها في سلوك الانسان .

وبذلك رفض « بيرس » كل اتجاه ميتافيزيقي أو مثالي ، واختار لنفسه هذا الاتجاه العملي النافع ، الذي كان له تأثيره فيما بعد خاصة على الفيلسوف البراجماتي الثاني « وليام جيمس » الذي قام بتطوير مذهب أستاذه وتعميق مفاهيمه بواسطة نظريته المشهورة عن الحقيقة ، حيث جاء بعد ذلك « جون ديوى » وأكمل البناء الفلسفي والتربوي للمذهب .

٣ ـ حياة وليام جيمس ومؤلفاته

أ ـ في عام ١٨٤٢ كان مولد « وليام جيمس » في أسرة أمريكية ثرية متدينة ، وقد أكمل دراساته الفلسفية والعلمية حتى حصل على الدكتوراه في الطب من جامعة هارفارد ، حيث أصبح بعد ذلك أستاذا للفسيولوجيا والتشريح في نفس الجامعة ، ولعل هذه الدراسة كانت سببا رئيسيا في ايمان جيمس بقيمة المنهج التجريبي وضرورة اتباع الاسلوب العلمي ، وقد دفعه تخصصه السابق الى دراسة علم النفس دراسة تجريبية ، حتى أصبح بعد ذلك أستاذا لتلك المادة أيضا ، خاصة انه أحدث فيها تحولا جذريا هاما • ثم تحول بعد ذلك الى دراسة الفلسفة وتبحر فيها حتى أصبح أشهر فيلسوف أمريكي في القرن العشرين ، حيث أكمل تأسيس المذهب البراجماتي الذي بدأه بيرس من قبل • وكان وليم جيمس موسر الحال غزير العلم ، فاستطاع التنقل بكثرة بين بلدان أوربا ليتقابل مع أعلام الفكر فيها ويلقي المحاضرات في جامعاتها ، حتى حاز على تلك المكانة العلمية المشهورة بين أهل عصره ، وحيث توفي بعد ذلك في عام ١٩١٠ مخلفا تراثا فكريا غزيرا كان له تأثيره العميق في الاتجاهات الفلسفية المعاصرة •



وليام جيمس

١٨٤٢ — ١٩١٠

ب ـ وكانت أشهر مؤلفاته هي « أصول علم النفس » في جزئين كبيرين ، وقد خالف فيه نظرة القدماء الى العقل الذين جعلوه سلبيا يتلقى المؤثرات فقط والذين جعلوا الافكار تترابط فيه آليا ، لكن جيمس نظر للعقل باعتبار أنه أداة ايجابية للنشاط الفعال الذي يقوم به الانسان للتكيف مع بيئته ، وأصبح العقل عنده مرتبطا بالسلوك العملي النافع • والكتاب الثاني المهم عند جيمس هو « البراجماتية » الذي حدد فيه فلسفته الخاصة في صورتها النهائية ، حيث عرض نظريته عن المعنى والحقيقة، والتي ربط فيها الفكرة بالسلوك العملي النفعي • هذا بالاضافة الى عدة كتب أخرى هامة تركها وليم جيمس مثل « ارادة الاعتقاد » و « التجربة الدينية » و « كون متكثر » ثم « بعض مسائل فلسفية » و « محاولات في التجريبية الخالصة » •

٤ ـ خلاصة آراء وليام جيمس

أ ـ قرر وليام جيمس أن معيار الحقيقة ليس الحكم العقلي ، وانما السلوك العملي النافع المرتب عليها ، وهو في هذا الامر يميز بين نوعين من الصدق في القضايا : صدق قائم على مدى تطابق القضية مع الواقع الخارجي، فتكون في حالة التطابق صحيحة ، وغير ذلك كاذبة • ثم صدق

آخر قائم على السعي لامتلاك الحقيقة نفسها والاستفادة منها عمليا ، حيث تكون القضية صادقة والفكرة صحيحة اذا أدت الـى نتائج عملية نافعة تفيد الفرد في حياتـه ، وتصبح الحقيقة كامنة فيما سوف تؤدي اليه من أعمال ، وليس في طبيعتها المجردة . وقد استفاد وليام جيمس في هذا الامر بالمنهج التجريبي الذي هو وسيلة التحقق مـن الفكرة والطريق الذي ستخرج منه كافة النتائج العملية الممكنة .

ولهذا نقد وليام جيمس أتباع المذهب المثالي الذين يقررون وجود صور عقلية للأشياء في أذهاننا ، فيقول أن وجود هذه الصور أو عدم وجودها لا يقدم ولا يؤخر في الحقيقة الواقعية ، كما لا يؤثر اطلاقا في طبيعة الاشيـاء نفسها ، وانما من الواجب السعي لامتلاك الحقيقة الفعلية والاستفادة منها عمليا . مثلا وجود صورة عقلية للنار في أذهاننا لا يمكنها أن تحرق الخشب أو الورق ، وكذلـك وجـود صورة عقلية للماء لا يمكنها أن تطفىء حريقـا مشتعلا ، مثل هذه الصور لا قيمة لبحثها في ذاتها لانها لن تؤثر عمليا في حياتنا ، ولن تترتب عليها نتائج فعلية .

ولأجـل هذا أيضا وجدنا وليـام جيمس يرفـض مناقشة القضايا الميتافيزيقية مثل : هـل العالم واحد أم

كثير ؟ وهل هو مادي أم روحي ؟ وهل الانسان حــر أم مقيد ؟ وغير ذلك من القضايا الغيبية المشابهة التي لا تؤدي الى نتائج عملية نافعة ، لذلك فهي ليست صحيحة، وهكذا انتهــى وليام جيمس الى تأكيد أن الحقيقة هي كل مــا يقودنــا الى النجاح في الحيــاة ، والفكر الصحيح هــو المكتشف الاول لطرق النجاح العملية ، ووسيلة تشكيل الحياة وأداة السيطرة عليها وتوجيهها الى كل ما هو نافع ومفيد للانسان •

الفصل الرابع

الروحيّة عِنْد هنري برجسون

١ ـ ظروف نشأة الروحية وأشهر فلاسفتها

أ ـ كان التقدم العلمي الكبير الذي أحرزته العلوم الطبيعيـة بمنهجها التجريبي ، وكـذلك اتجاه العلـوم الانسانيـة هذا المنحى التجريبي واحرازها الكثير مـن التقدم ، كل هذا دعم الاتجاه المادي في العصر الحديـث عامة وفي القرن العشرين خاصة ، وأصبح التفسير المادي يمتد الى الظواهر الطبيعية وكذلك الظواهر الانسانية ، حتى كاد الانسان يصبح ظاهرة طبيعية مثل بقية ظـواهر الطبيعة الاخرى ، لكنه أكثر تعقيدا فقط ، حيث تحولت الظواهر الروحية نفسها الى مجرد تبديات لظواهر مادية في جسم الانسان ، وفقد الانسان بذلك كيانه العقلـي والروحي الذي ميزه عن بقية الظواهر الاخـرى ، وتعدد ظهور المذاهب المادية والآلية في الفلسفة ، وفقد الانسان انسانيته ، وتحول السلوك الى حركات آلية أساسها المثير والاستجابة ، وأصبح التفكير مجرد عمليات آلية خالصة ، والروح خرافة لا وجود لها .

ب ـ وقد أدى طغيان هذا الاتجاه المادي في القرن

العشريـــن الى حدوث رد فعل قوي حمل لواءه بعــض المفكريـــن والفلاسفة الغيورين على الانسان والمؤمنـــين بكيانه الروحي وبطبيعته الحيوية التي تغاير تماما الطبيعة المادية الجامدة ، وقد تصدى هؤلاء المفكرون للرد علـــى المذاهب المادية سواء في علم النفس أم في نظرية التطور ، بالاضافــة الى نقد العلم التجريبي المادي وتأكيد قيمــة الحدس والفعل الحي والارادة المتحررة •

وكان في مقدمة الفلاسفة الذين حملوا لواء الاتجاه الروحي الحيوي الفيلسوف الفرنسي « مين دي بيران » الذي وضع المبادىء الاولى لهذا الاتجاه الجديد ، حيث تبعه بعد ذلك فلاسفة فرنسيين آخرون مثل « رافيسون » و « لاشليه » و « بوترو » و «بلوندل» ثم « برجسون » وغيرهم • لكن «برجسون» كان أشهرهم جميعا وأعمقهم فلسفة وأدقهم حجة ، وذلك رغم أنه كان تلميذا لبعضهم، الا أنه أصبح بعد ذلك حامل لواء المذهب الروحي فـــي القرن العشرين والمدافع عنه دون منازع •

٢ ـ حياة هنري برجسون ومؤلفاته

أ ــ ولد « هنري برجسون » في باريس عام ١٨٥٩ من أسرة متوسطة الحال، اهتم فيها والده بتعليمه ورعايته حتى أصبح لامعا طوال دراسته بعد ذلك ، وقد بدأ أولا

بدراسة الرياضة والطبيعة حتى تفوق فيها أثناء دراسته الثانوية ، لكنه بدأ يميل الى الفلسفة تدريجيا حتى تحول الى دراستها كلية منذ التحاقه بمدرسة المعلمين العليا ، حيث نال شهادتها بتفوق وكان ترتيبه الثاني على زملائه . ثم عمل بعد ذلك مدرسا للفلسفة ببعض المدارس الثانوية في فرنسا ، وظهر في أثناء ذلك نشاطه الكبير في مجال الدراسات الفلسفية ، فبدأ يكتب المقالات المختلفة ويضع بعض الكتب الفلسفية المدرسية ويلقي عددا من المحاضرات في كلية الآداب بباريس ، وكان يقوم في نفس الوقت باعداد رسالتين للحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة الروحية .

وبعد حصوله على تلك الدرجة بتفوق كبير وذيوع شهرته ظل يعمل في تدريس الفلسفة بالجامعات الفرنسية طوال حياته ، متفرغا للتأليف ونشر مذهبه الفلسفي الروحي دون كلل، كما هاجم الحرب العالمية الاولى وكان يدعو الى السلام ، واهتم بأعمال عصبة الامم حيث كان رئيسا للجنة التعاون الفكري التابعة لعصبة الامم ، وظل يمارس نشاطه الفكري باخلاص شديد حتى أصابه المرض تدريجيا وأقعده عن العمل ، لكنه لم يمنعه من التأليف ، ثم توفي أخيرا عام ١٩٤١ مخلفا آثارا فلسفية كبيرة وتراثا روحيا عظيما كتب له الخلود ليس في فرنسا وحدها وانما

في العالم أجمع ، كما أن جهوده في رفع شأن الروحية ضد المادة وأعماله المختلفة في محاولة اقرار السلام عالميا بعد الحرب الاولى ، كل هذا جعله يستحق عن جدارة وسام الصليب الاكبر من الحكومة الفرنسية ، وكذلك جائزة نوبل للسلام في الأدب .

ب ـ وقد ترك برجسون عددا كبيرا من الكتب والمقالات والمحاضرات غزيرة المعنى عميقة الفكر ، كان لها دورها في ارساء قواعد الروحية المعاصرة والرجوع بالانسان الى ينبوع الروح والحياة الحية المتطورة . وأهم تلك الكتب هي :

« رسالة في معطيات الشعور المباشرة » وهي الرسالة الاصلية للدكتوراه التي هاجم فيها الماديين والجبريين وقرر تميز الحياة النفسية الانسانية بالروحية . وقد كانت تلك الرسالة بداية عمله لتأسيس المبدأ الروحي في فلسفته . « المادة والذاكرة » وهو بحث كبير بيّن فيه برجسون الصلة بين الجسم والعقل ، وأكد فيه أن النمو والحيوية هما أهم خصائص الحياة النفسية . « التطور الخالق » وهو من أهم كتبه لأنه حاول أن يطبق فيه نظريته الروحية عن نشأة الكون كله وتطوره ، مع تفسيره روحيا وليس ماديا . « الطاقة الروحية » وهو كتاب

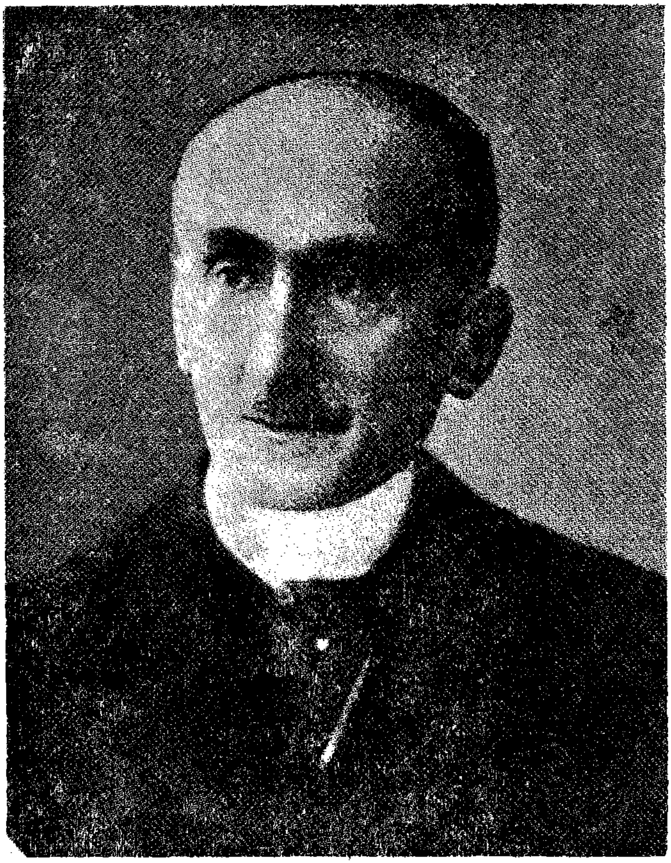
يضم مجموعة من محاضرات ومقالات يبرز فيها خصائص الطاقة الروحيــة الكامنة في الانسان ، ويبــين قدراتهــا وامكانياتها المختلفــة التي لا ينضب معينها • « منبعــا الاخلاق والدين » ، ويعرض في هذا الكتاب نظريتــه عن الاخــلاق والله والدين في ارتباطهــا بآرائه وتفسيراتــه الروحية السابقة • « الفكر والمتحرك » وهو كتاب يضم مجموعــة مقالات هامة يوضح فيهــا برجسون مذهــبه الروحي ويبين قيمة الحدس وحقيقة التغير والميتافيزيقــا كما يراها من وجهة النظر الروحية • هذا كله بالاضافــة الى عدد آخر من الكتب والمقالات التي تسير في نفــس الخط الروحي الذي اتخذه برجسون مذهبا لنفسه •

٣ ــ خلاصة آراء هنري برجسون الفلسفية

أ ــ بدأ برجسون جهده الفلسفي بدراسة المذهب المادي الذي نادى به « هربرت سبنسر » في نظريته عــن التطور ، والذي انتهى اليه علماء النفس التجريبيين فــي أواخــر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ثــم هاجم بعد ذلك نظرية التطور التي جعلت كــل مكونات الانسان مادية خالصة ، وأنكرت التفكير المجرد والنفس المعنوية • كما هاجم علماء النفس الماديين بأن قرر مبدئيا التفرقة بين نوعين مــن الظواهر : ظواهر جسمية مــادية ،

وأخرى نفسية روحية ، توجد بين كل منهما اختلافات جوهرية لم ينتبه اليها أنصار المذهب المادي في علم النفس، فالظواهر الجسمية عبارة عن مادة متكثرة ومنفصلة في حقيقتها ، كما انها تتعاقب في تقطع ، فهي كم محسوس يمكن اخضاعه للبحث التجريبي والقياس الكمي • لكن الظواهر النفسية عكسها تماما لانها متصلة وتحدث تلقائيا من الباطن ، كما تتمثل بالديمومة والخلق المستمر دون انقسام أو تكثر اطلاقا ، فهي كيف خالص لا يمكن اخضاعه للبحث التجريبي أو القياس الكمي •

وبذلك يكون من الخطأ الكبير أن نخلط بين هذين النوعين المختلفين من الظواهر ، حيث أن علماء النفس التجريبي وقعوا في هذا الخطأ عندما أطلقوا على الظواهر النفسية صفات خاصة بالكميات المادية مثل الطول أو القصر أو الشدة أو العمق وغيرها مما يختص بالظواهر الجسمية المادية فقط ، كما أخطأوا أيضا عندما جعلوا الظواهر النفسية تبديات للجسم وآثارا لعوامل مادية طبيعية ، وسبب الخطأ هو التباين الشديد في طبيعة كل من الظواهر النفسية الكيفية والظواهر الجسمية المادية ، وهكذا ينتهي برجسون الى اثبات استقلال الجانب النفسي الروحي في الانسان وتأكيد وجوده بعكس ما قرره الماديون •



هنري برجسون

١٨٥٩ – ١٩٤١

ب ـ وقد ترتبت على هذه التفرقة السابقة نتيجة هامة هي تمييز برجسون بين العقل كوسيلة لادراك الاجسام المادية والوقائع المحسوسة ، وبين الحدس كوسيلة باطنية للادراك المباشر لكل ما هو كيفي وزماني. حقا أن التعقل يمكنه القيام بالتحليل وكشف جوهر الاشياء وتحويلها الى قوانين واضحة ، لكنه في نفس الوقت يعجز عن ادراك الحركة الدائمة ولا يمكنه اكتناه الوجود الحيوي الزماني، الذي هو من اختصاص الحدس وحده . اذن فالعقل يقوم بعملية التحليل والتركيب لادراك الحقائق الجزئية المادية ويجعلها وسيلة لخدمة الحياة العملية ، بينما الحدس يقوم بعملية تطلع كلي والتحام مباشر بالحقيقة لكشف جوهرها، خاصة في المجال الحيوي والنطاق الروحي ، أي أن التفرقة السابقة بين المادة المحسوسة والنفس الروحية تعني انقسام الوجود الى مجالين أساسيين : مجال المادة المتحيزة الجامدة، وهذه وسيلة ادراكها العقل ، ومجال الحياة المعنوية الواعية ذات الدوام المتجدد ، والتي يتم ادراكها بالحدس .

وهكذا أكد برجسون استقلال الحياة النفسية عن الجسم المادي وجعلها مرتبطة بالروح الحية ، التي هي في جوهرها حرة تماما وتعيش ديمومة خلاقة ، عكس الجسم

المادي الذي يخضع لآلية محددة وجبرية دائمة ، والروح كيف مجرد لا يخضع لهذه الآلية وتلك الجبرية ، أي أن الانسان حر في جوهره الروحي ، بينما هو مقيد ومجبر بسبب وجود الجسد المادي ، الذي هو ظاهرة عرضية لا تمثل الحقيقة الروحية الدائمة .

ج ـ واذا كانت الروح هي الجوهر الحقيقي للانسان ، فانها أيضا عند برجسون الاصل الذي انبثق منه الوجود المادي نفسه ، لقد كان الماديون يردون الظواهر النفسية والروحية الى أصول جسمية مادية ، فقلب برجسون الوضع ورد الوجود المادي كله الى أصل روحي خرج منه وتطور عنه ، ان كتل السديم اللانهائية العدد والتي يتكون منها الكون ، كانت في أصلها أبخرة وغازات مختلفة تكثفت وتحولت الى مادة جامدة ، ولا زالت عشرات غيرها تتكثف حاليا ، وسيظل الوجود في حركة مستمرة .

وعلى هذا فالوجود انبثق من مركز روحي أساسي هو الله ، وفاض عنه على هيئة قذائف وباقات مستمرة في حركتها الحية التي هي جوهر وجودها ، والتي تكثفت

بعض أجزائها في أشكال مادية ، ثم تطورت الكائنات الحية بعد ذلك اعتمادا على الطفرة أو الوثبة الحية التي تميزت بها عن الجماد الذي يتغير أو يتطور آليا .
والخلاصة أن المادة في حقيقتها الاصلية مظهر روحي يتشكل في أنواع مختلفة من الوجود ، والعالم كله يعيش في ديمومة خلاقة وصيرورة مستمرة .

الفصل الخامس

التحليلية عِنْد بوترانـد راسِل

١ ـ ظروف نشأة التحليلية وأبرز مؤسسيها

أ ـ كان التقدم العلمي الكبير الذي تم في القرن العشرين له تأثيره العميق في التيارات الفلسفية المعاصرة ، بالاضافة الى التقدم الذي أحرزته العلوم الرياضية حاليا، حيث تضافر كل منهما وقدما للانسانية آفاقا جديدة من المعرفة والكشوف التي لم تكن تخطر على بال انسان قط ، وكان في مقدمة تلك الكشوف تفتيت الذرة ورد كل الموجودات المادية في العالم الى جزئيات صغيرة ، ثم التوصيل الى تحطيم هذه الجزئيات الذرية وكشف جوهرها والاستفادة من طاقاتها ، بعد أن كان الاعتقاد السابق هو عدم امكان تجزئيتها • كل هذا أحرزه العلم بمنهجه التجريبي في ارتباطه بالرياضة بمنهجها التحليلي •

وأصبحت السمة المميزة للقرن العشرين هي أنه « عصر التحليل » سواء كان تحليلا ماديا أو رياضيا • كما أدت هذه الامور الى تحول غالبية المفكرين المعاصرين من الاتجاه المثالي الى الاتجاه الواقعي ، حيث أن تربة القرن العشرين المادية التحليلية أدت بالضرورة الى أن تكون

ثمارها الفكرية واقعية ، سواء كانت تلك الواقعية مادية أو تحليلية ، طبيعية أو انسانية ، وهذا لم يمنع من وجود بعض الاتجاهات المثالية المعاصرة ، لكنها قليلة ولا تجد لها تربة خصبة تنمو فيها مثل الاتجاهات الواقعية •

وعلى هذا فالطابع العام للفلسفة المعاصرة هو الطابع التحليلي الواقعي ، المتناسق مع روح العصر العلمية والرياضية ، والذي يساير أحدث المكتشفات العلمية وآخر التطورات الرياضية ، حيث أن الفلسفة تعبير عن العصر الذي تنشأ فيه ، كما أنها تعميق نظري للاحداث الخاصة به • من أجل هذا تعددت المذاهب الفلسفية المعاصرة التي تندرج تحت الاتجاه الواقعي التحليلي ، وثار غالبية الفلاسفة المعاصرين على المطلق والمثالي وغيرها من المذاهب المشابهة التي كانت سائدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وذلك لعدم مسايرتها روح القرن العشرين • حقا ان كثيرا من الفلاسفة الواقعيين والتحليليين المعاصرين بدأوا أولا في مذاهبهم الفلسفية كتلاميذ لكانط وهيجل ، لكنهم سرعان ما تحولوا عن مثاليتهما واطلاقيتهما الى اتجاهات أخرى واقعية ومادية وتحليلية تتفق مع ظروف القرن العشرين •

ب ــ ولعل أبرز اتجاه فلسفي معاصر عبر عن تلك الروح العلمية الرياضية هو الاتجاه التحليلي ، الذي

يضم عددا من المذاهب المتجانسة مثل الواقعية الجديدة التي أسسها في انجلترا الفيلسوف الانجليزي « جورج مور » ثم سار في طريقها بعد ذلك « برتراند راسل » و « الفريد نورث هوايتهيد »، وكذلك الوضعية المنطقية التي ظهرت أولا على يد « موريس شليك » في فيينا ثم حمل لواءها بعد ذلك « آير » و « كارناب » وغيرهما •

والحقيقة أن أشهر من عبر عن الاتجاه العام للفلسفة التحليلية المعاصرة هو « برتراند راسل » الذي جمع في فلسفته أحدث التطورات الرياضية وآخر الكشوف العلمية الذرية ، فكان المؤرخون يطلقون على فلسفته اسم « الفلسفة التحليلية أو الرياضية » وكذلك اسم « الواقعية الذرية » أو « الواقعية الجديدة » وغير ذلك من الأسماء التي تتفق مع جوهر فلسفته وتساير روح العصر ، حيث كان راسل من الفلاسفة المعاصرين القلائل الذين غيروا فلسفاتهم وطوروها حسب تطور الكشوف الرياضية والعلمية •

٢ ـ حياة برتراند راسل ومؤلفاته

أ ـ ينتسب « برتراند راسل » الى احدى العائلات الانجليزية العريقة ، وقد ولد عام ١٨٧٢ حيث توفي والده وهو لم يزل في الثالثة من عمره، فتولى تربيته جده اللورد

« جون راسل » الذي شجع حفيده على القراءة والاطلاع في مكتبته الكبيرة، وقد بدأت ميوله الى العلوم الرياضية تظهر في سن مبكرة ، وذلك حين قرأ في الحادية عشرة من عمره كتاب اقليدس عن الهندسة وأعجب به ، كما قرأ بعد ذلك مؤلفات « جون ستيوارت ميل » فبدأ يقتنع بقيمة المنهج التجريبي ، الامر الذي دفعه للتوسع في هذه الدراسة في الجامعة ، فالتحق بجامعة كامبريدج وتخرج منها عام ١٨٩٤ حيث تأثر أثناء الدراسة بمثالية هيجل وتحمس لها ، لكنه تحول عنها بعد ذلك وازداد تمسكا بالواقعية والتحليلية .

وقد عمل « راسل » بعد تخرجه من الجامعة في السلك الدبلوماسي بعض الوقت ، لكنه فضل عليه التدريس في نفس الجامعة التي تخرج منها ، حيث بدأ يحدد معالم مذهبه الفلسفي ويعمل على نشره تدريجيا . وكان راسل كثير الترحال ، زار عددا من الدول الاوربية الشرقية والغربية ، وقابل أعلام الفكر الفلسفي والرياضي في عصره، وحضر العديد من المؤتمرات الفلسفية التي كان لها كلها تأثيرها الكبير في فلسفته . وقد تقابل راسل مع العالم الايطالي الرياضي المشهور « بيانو » وتأثر باتجاهه الرياضي ، فتفرغ بعد ذلك لدراسة الرياضة مع زميله الفيلسوف الرياضي « الفريد نورث هوايتهيد » مدة عشر

سنوات تقريبا ، أخرجا بعدها أكبر وأشهر كتاب في المنطق الرياضي الحديث عنوانه « مبادىء الرياضة » وهو الذي اشتهر باسمه اللاتيني « برنكيبيا ماتيماتيكا » الذي كان بداية عصر التحليل الرياضي في القرن العشرين ، وهو الذي حاول فيه راسل وزميله رد الرياضة الى علم المنطق . وقد تابع راسل اتناجه الفكري بعد ذلك في نفس هذا الخط التحليلي الرياضي ، بالاضافة الى مسايرته أحدث التطورات التجريبية في العلم الطبيعي والتي كان أشهرها تحليل المادة الى ذرات ، ثم تفتيت الذرة الى أجزاء ، الامر الذي يساير اتجاهه التحليلي ليس فقط في العقل والتفكير ، وانما أيضا في المادة والطبيعة .

الى جانب تلك الجهود الفلسفية الرياضية المتخصصة، وجدنا راسل يوجه اهتمامه أيضا الى ميادين أخرى اخلاقية واجتماعية وسياسية ، كانت له فيها كلها آراء ونظريات فلسفية عميقة أحدثت تأثيرات قوية وصدى واسعا في القرن العشرين . فقد كان أشهر دعاة السلام في القرن العشرين ، وكان يسعى من خلال دراساته ومؤلفاته الاخلاقية والاجتماعية والسياسية الى تأكيد قيمة السلام ودوره في تحقيق الرخاء لكافة الناس وتطوير العالم الى ما هو أحسن مما عليه الآن . وهذه النزعة في تسخير العلم والفكر لتحقيق السلام لم تنشأ متأخرة عند راسل ، وانما

ظهرت عنده منذ صدر شبابه حين تنازل عن ثروته الكبيرة الموروثة لجمعيات البحث العلمي التي تسعى لاقرار السلام • كما أن معاصرته للحربين العالميتين الاولى والثانية ، ومشاهدته الاهوال والدمار والتخلف الذي أصاب الانسانية بسببهما ، كل هذا دفعه للتوسع في الدعوى الى السلام ، فاستحق بذلك جائزة نوبل للسلام عام ١٩٥٠ وعدد آخر من الاوسمة العالمية ، كما أنه أنشأ في عام ١٩٦٣ مؤسسة السلام العالمي للعمل على تحقيق هذا الهدف بشتى الوسائل الممكنة •

وكان راسل يقف في صف الشعوب الصغيرة والمناضلة التي تثور ضد الاستعمار وتطالب بالحرية والسلام ، لذلك وجدناه يهاجم الحكومة الامريكية في حربها غير المتكافئة مع شعب فيتنام ، ويقود المظاهرات المضادة لها بنفسه ، بل انه عقد محكمة شكلية لمحاكمة مجرمي حرب فيتنام • ولم يكن راسل راضيا أيضا عن الغزو الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وثار على العدوان الاسرائيلي على العرب عام ١٩٦٧ ، وكان آخر عمل له هو رسالة تأييد للعرب ضد اسرائيل ، وجهها للعالم أجمع يدافع فيها عن حق العرب في الحرية والثورة ، ويدين اسرائيل والذين يقفون وراءها من الدول الاستعمارية

الكبـرى ، حيث توفي بعد ذلك مباشرة في فبراير عـام ١٩٧٠ •

ب ــ أما مؤلفات برتراند راسل فانها كثيرة العدد ومتشعبة الميادين ، وهي تواكب كافة التطورات الرياضية والمنطقيـة والعلمية والفلسفية والاجتماعية التي عـاش الفيلسوف أحداثها طوال القرن العشرين ، وفيما يلي بيان بأهم هذه المؤلفات في شتى الميادين السابق ذكرها •

أولا : الرياضة والمنطق الرياضي ، « مقال في أسس الهندسة » عام ١٨٩٧ ، « أصول الرياضيات » عام ١٩٠٣، « مبادىء الرياضة أوبرنكيبيا ماتيماتيكا » عـام ١٩١٠ بالاشتـراك مع زميله الفيلسوف هوايتهيد ، « مقدمـة للفلسفة الرياضية » عام ١٩١٩ «معرفتنا بالعالم الخارجي» عام ١٩١٤ ، « التصوف والمنطق » عام ١٩١٨ ، « بحث في المعنـى والصدق » عام ١٩٤٠ « المنطق والمعرفة » عـام ١٩٥١ ، « الذرية المنطقية » عام ١٩٥٤ •

ثانيا : العلم وفلسفة العلم ، « تحليل العقل » عـام ١٩٢١، «ألف باء الذرة» عام ١٩٢٣ ، « ألف باء النسبية» عام ١٩٢٥ ، « المنهج العلمي في الفلسفة » عـام ١٩١٤ ، « تحليـل المادة » عام ١٩٢٧ ، « مجمل الفلسفة » عـام ١٩٢٧ ، « النظرة العلمية » عام ١٩٣١ •

ثالثا : الفلسفـة العامة ، « عرض نقدي لفلسفـة لا يبنتنز » عام ١٩٠٠ ، « مقالات فلسفية » عام ١٩٠١ ، « مشكلات الفلسفة » عام ١٩١٢ ، « مقالات في الشك » عـام ١٩٢٨ ، « تاريخ الفلسفة الغربية » عـام ١٩٤٥ ، « المعـرفة الانسانية » عام ١٩٤٨ ، « فلسفتي وكيـف تطورت » عام ١٩٥٩ ، « برتراند راسل يتحدث عن فكره » عام ١٩٦٠ ، « سيرتي الذاتية » عام ١٩٦٧ .

رابعا: السياسة والاجتماع «الحرب وليدة الخوف» عـام ١٩١٥ ، « المثل العليا في السياسة » عـام ١٩١٧ ، « الطرق المؤدية للحرية » عام ١٩١٨ ، « الحرية والنظام » عام ١٩٣٤ ، « أي طريق يوصل للسـلام » عام ١٩٢٦ ، « مبادىء اعادة البناء الاجتماعي » عام ١٩٢٦ ، « الزواج والاخلاق » عام ١٩٢٩، « القوة، تحليل اجتماعي جديد » عام ١٩٣٨ ، « التربية والنظام الاجتماعي » عام ١٩٣٢ ، « أثر العلم في المجتمع » عام ١٩٥١ .

٣ ـ مجالات التحليل في فلسفة راسل

يمكـن حصر فلسفة راسل التحليلية في المجـالات التالية : تحليل الرياضة ، تحليل العالم ، تحليل الفكر ، ثم تحليل اللغة، فماذا قرر في كل مجال منها ؟ وما هي الرابطة التي تمسك بينها كلها ؟.



برتراند راسل

۱۸۷۲ — ۱۹۷۰

أ ـ تحليل الرياضة وردها الى المنطق : كان الهدف الاساسي عند راسل من منهجه التحليلي هو الرجوع الى العناصر الأولية البسيطة والوحدات الجزئية الاساسية ، التي يقوم عليها الفكر والوجود ، والتي يبدأ منها العلم والمعرفة ، لان هذا التحليل يوضح حقيقة تلك العناصر والجزئيات ، كما يبين العلاقات التي تربطها بعضها ببعض، وذلك في محاولة من راسل لتأكيد قيمة تلك العناصر الاساسية والوحدات الجزئية ، مع ابراز أهمية العلاقات عامة وبيان قيمتها الحقيقية التي أغفلها غالبية الفلاسفة .

وقد بدأ راسل تطبيق هذا المنهج على الرياضيات ليكشف الوحدات الاساسية التي ترتد اليها الرياضة ، وليوضح أنواع العلاقات التي تربطها فيما بينها ، ويؤكد وجود كيان مستقل لها . وهو في عمله التحليلي هذا قد أكمل جهود الرياضيين السابقين عليه خاصة أستاذه « بيانو » الذي قام برد العلوم الرياضية كلها الى علم الحساب ، ثم قام بعد ذلك بتحليل علم الحساب ورده الى ثلاثة مبادىء أولية بسيطة أطلق عليها اسم « اللامعرفات » هي : الصفر والعدد والفئة . وظن « بيانو » أن تلك هي آخر المبادىء التي يمكن تحليل الحساب اليها . لكن جاء « راسل » واستخدم منهج التحليل في فض مضمون فكرة العدد ، ووجد انها بدورها ترتد الى فكرة « الفئة »

التي هي من مباحث المنطق ، حيث ان الفئة حسب كلام راسل نفسه « ليست سوى صيغة لفظية » وانها وسيلة بسيطة نستخدمها في الكلام عن القيم المتغيرة التي نضيفها الى القضايا .

وهكذا وجد راسل عند التحليل أن المبادىء الاولية للرياضة ترتد الى علم المنطق ، وان المشكلات الرياضية هي في حقيقتها وعند البحث عن حلولها تتحول الى مشكلات منطقية ، ويتم التوصل الى تلك الحلول عن طريق التحليل المنطقي لهذه المشكلات الرياضية .

ب ـ تحليل العالم المادي : سار فيه راسل على نفس المنهج السابق ، محاولا رد العلم المادي الى وحداته الجزئية الاصلية التي يتركب منها ، وهو يساير في هذا الاتجاه أحدث ما توصل اليه العلم التجريبي وآخر اكتشافات الذرة وتفتيتها . وهو يبدأ أولا بتقرير أن المادة عند تحليلها تصبح مجرد مجموعة من الاحساسات ترتبط فيما بينها بعلاقات معينة ، ومن ثم تكون « المادة » مجرد رمز يدل على فئة ، وتلك الفئة هي مجموعة المظاهر التي يتم ادراكها حسيا من عدة زوايا معينة ، تتجمع بعد ذلك لتأخذ شكلا محددا .

وينحو راسل منحا تعدديا ذريا في فلسفته عن العلم

المادي يتفق مع النظرية الذرية ، فالمادة في حقيقتهـا وعند تحليلها ترتد الى جزئيات صغيرة جدا هي الذرة ، لـكن تلك الوحدات الصغيرة جدا ليست بطبيعتها بسيطـة ، وانما هي أيضا مركبة من علاقات وأحداث متفاعلة ، أي أن المادة لا تشغل حيزا مكانيا فقط ، وانما تعيش أيضـا أحداثا زمانيا مرتبطة بهذا المكان ، ومن ثم تصبـح المادة عبارة عن مكان وزمان معا ، وذلك مثلما قرر «أينشتين» في نظريته عن النسبية ، وكما توصل العلماء من نفتيـت الـذرة واكتشاف أن المادة في حقيقتها مجـرد كهيربات متحركة تتماسك داخل الذرة في علاقات مختلفة ، لذلك قرر راسل أن المادة مجموعة من الاحساسات ومجرد رمز يمكـن ادراكه حسيا ، حيث أن المـادة فقدت ماديتهـا وأصبحـت مجموعة أحـداث جزئية ، لكن كيف يتـم ادراكها ؟ وما هي طبيعة العقل الذي سيدركها ؟•

جـ ـ تحليـل الفكر والعقل : قام راسل بتحليـل الفكر والمعرفة وردهما الى الوحدات الاساسية ، فقـرر مبدئيا أن الشعور ليس شيئا ماديا قائما بذاته ، وانما هو مجموعة أحداث تلتقي فيها الحواس بالمعطيات الخارجية التقاء مباشرا أو غير مباشر ، حيث تنتقل هذه المؤثرات من خلال الجهاز العصبي الى مراكز الحواس في المـخ ، وتتجمع بعد ذلك تلك المدركات الحسية الجزئية عـن

طريق عمليات الادراك الحسي المختلفة لتأخذ شكل أحداث متسلسلة مترابطة ، هي التي نطلق عليها اصطلاح « الادراك » أو « المعرفة » ، ويرى راسل أن المعرفة الحقيقية هي تلك التي تتم بالادراك المباشر للمعطيات الحسية الجزئية ، أما المعرفة غير المباشرة فانها أقل دقة وأضعف قيمة من سابقتها . وبالنسبة للعقل فقد رده راسل بالتحليل الى مجموعة أحداث متغيرة تتعدد علاقاتها ببعضها ، ومثله في ذلك كمثل المادة عند تحليلها تماما .

وهكذا وجدنا الحدود الفاصلة بين المادة والفكر بدأت تنحسر تدريجيا بواسطة التحليل ، وأصبحت الوقائع في حقيقتها ليست مادة خالصة ولا فكرا مجردا ، لهذا نادى راسل بنظريته عن « المادة المحايدة » أو « الواحدية المحايدة » التي جعلها أصل الوجود ، وكان يقصد بها لا مادة ولا فكر ، وانما شيئا محايدا يصلح لان يكون مادة عندما يتجمع ، وأن يكون فكرا وأحداثا معنويا عندما نحلله .

د ـ تحليل اللغة والكلام : طالما أن حقائق الرياضة والمادة والفكر ترتد بالتحليل الى وقائع جزئية تمثل أصل الحقيقة ، وطالما أن أحداث العقل وعلاقاته جزئية تنصب على حقائق أخرى جزئية خارجية ، لذلك فان اللغة التي

سوف نستخدمها للتعبير عن هذا الادراك وتلك الحقائق لا بد أن تكون أيضا جزئية ومباشرة ، وذلك لتكمل التناسق السابق •

وقد توصل راسل من تحليل اللغة الى وجود نوعين أساسيين من القضايا هما :

قضايا جزئية بسيطة تدور حول وقائع خارجية جزئية بسيطة ، يطلق عليها راسل اسم « القضايا الذرية »، ثم قضايا مركبة غير مباشرة ، وتدور حول قضايا أخرى ذرية تشرحها وتتحدث عنها • واعتبر راسل « القضايا الذرية » هي الوحدة الاساسية التي يرتد اليها التفكير والتي تنحل اليها اللغة ، ومعيار التحقق من صدق القضايا عند راسل يرتبط بنوع القضية ، فصدق القضية الذرية مرهون بمطابقتها للعالم الخارجي ، أما صدق القضبة المركبة فيكون بتحليلها أولا الى القضايا الذرية التي تتكون منها ، ثم البحث عن مدى تطابق تلك القضايا الذرية الاخيرة مع الواقع الخارجي •

الفصل السادس

الفينومينولوجيا أو الظاهراتية عند إدموند هوسرل

١ ـ معنى الفينومينولوجيا وظروف نشأتها

أ ـ الفينومينولوجيا كلمة تعني في أصلها اللغوي اللاتيني « علم الظواهر » ويترجمها البعض في اللغة العربية بكلمة « الظاهراتية » ، لكن الترجمة الحرفية للكلمة اللاتينية وهي « الفينومينولوجيا » أكثر شيوعا وأدق استعمالا من غيرها ، ويقصد بها العلم الذي يكتفي بدراسة الظواهر المتبدية في الشعور ، دراسة وصفية ، مع تحليل الشعور وكشف حقيقة أفعال الادراك ومكوناتها (١) .

وهذا المصطلح الفلسفي حديث نسبيا، فقد استخدمه

---

(١) تختلف الفينومينولوجيا عن المذهب الظاهري في أنها علم له منهج محدد وأهداف معينة يسعى لتحقيقها ، بينما المذهب الظاهري مجرد آراء فردية فلسفية لا ترقى الى مستوى العلم . كما أن الفينومينولوجيا علم وصفي مرن وجهد مفتوح، بينما المذهب الظاهري نسق كامل مغلق . لكن رغم ذلك يتفق كل منهما في دراسة ظواهر الاشياء فقط ، ورفض باطنها الذي لا يظهر ، وذلك حسب المعنى الكانطي .

« كانط » من قبل في أواخر القرن الثامن عشر حين فرق بين ظاهر الشيء وباطنه ، ثم استخدمه بعد ذلك « هيجل » في أوائل القرن التاسع عشر وأطلقه على علم فلسفي خاص به هو « علم ظواهر الروح » ، كان فيه مثاليا الى أقصى الدرجات، ثم شاع بعد ذلك استخدام تلك الكلمة بمعاني جديدة مختلفة حتى جاء « إدموند هوسرل » وجعلها إسما لفلسفة متكاملة أقام هو بناءها في أوائل القرن العشرين ، حتى أصبحت بعد ذلك كلمة «فينومينولوجيا» مقترنة باسمه كأكبر مؤسس وممثل لها في الفلسفة المعاصرة ، وذلك بعد أن ذاع صيتها وامتد تأثيرها الى كثير من الفلسفات الاخرى المعاصرة ، وتأثرت بها مناهج بعض العلوم الانسانية .

كانت الفينومينولوجيا انعكاسا حقيقيا للتطور الرياضي والعلمي الذي طرأ على الفكر الغربي الحديث ، خاصة في القرن العشرين ، فمنهج الرياضة التحليلي أحرز تقدما كبيرا جعل الفلاسفة والعلماء على السواء يدركون قيمته ويتأثرون به ويتبعون خطاه، كما أن المنهج التجريبي الوصفي وما ترتب على استخدامه من كشوف علمية متعددة ، جعل الفلاسفة بالذات يقتبسون منه ما يصلح لتطوير مذاهبهم بما يتفق مع روح العصر ، وبما يساير

التقدم العلمي ، حيث أصبحت الفلسفة حاليا مواكبة لكل هذه الاحداث وتلك التطورات •

وكانت الفينومينولوجيا ــ مثل الفلسفة التحليلية ــ في مقدمة الفلسفات التي اقتفت خطوات التحليل الرياضي والوصف العلمي ، فقد أراد هوسرل أن يحول الفلسفة من مجرد مذاهب نظرية متناقضة وأبنية ميتافيزيقية خاوية، الى علم يقيني دقيق يوصل الى حقائق يقينية تكون أساسا لكل العلوم الاخرى الممكنة ، وذلك مثلما أراد كانط من قبل تأسيس الميتافيزيقا كعلم صحيح مستقل ، وحدد هوسرل منهجا جديدا للعلم الجديد الذي هو « الفينومينولوجيا » يتفق مع طبيعته وأهدافه ، منهجا يجمع بين التحليل الرياضي والوصف العلمي ، وذلك في شكل جديد لم يسبقه اليه أحد من الفلاسفة السابقين •

ب ــ كان لهذا الاتجاه الفينومينولوجي تأثيره الكبير في الفلسفة المعاصرة ، وكذلك في مناهج البحث الخاصة ببعض العلوم الانسانية حاليا • فما دامت الفينومينولوجيا علما يقينا صحيحا ، له منهجه القائم على التحليل الرياضي والوصف العلمي ، ويهدف الى ادراك الماهيات الحقيقية المدركة ، اذن ليس هناك مانع من استخدامه في بقية المباحث الفلسفية الاخرى ، ولا يوجد

مانع أيضا من تطبيقه في بعض العلوم الانسانية لنصل بها الى يقين أكثر •

من أجل هذه الاسباب بدأت الفينومينولوجيا تتسع في دائرة تأثيرها وذلك منذ تم تأسيسها على يد هوسرل وبعد وفاته وحتى الآن ، فقد تأثر بها كثير من الفلاسفة المعاصرين مثل « الكسندر بفاندر » و« موريس جايجر » و « إديث شتاين » و « مارفن فارير » وغيرهم ، الا أن أشهرهم كان « ماكس شيلر » الذي استخدم المنهج الفينومينولوجي في دراسة الظاهرة الاخلاقية • هذا بالاضافة الى عدد آخر من فلاسفة الانسانيات الذين استخدموا المنهج الفينومينولوجي في دراسة جوانب انسانية متعددة مثل اللغة والتفكير والجمال والتاريخ وغيرها ، وذلك في محاولة منهم لاضفاء الدقة واليقين على بعض الظواهر الانسانية • وأخيرا كان أكبر تأثير للمنهج الفينومينولوجي يتمثل في الفلسفة الوجودية المعاصرة التي اقتبس عدد من أقطابها هذا المنهج التحليلي الوصفي الجديد في مذاهبهم الوجودية ، وفي مقدمة هؤلاء الوجوديين الفينومينولوجيين يقف كل من « هايديجر » و « سارتر » كتلامذة مخلصين ل « هوسرل » • والآن ما هي خلاصة نشأة هوسرل ؟ وما أهم مؤلفاته ؟ ثم ما هي مراحل تكوين الفينومينولوجيا وأبرز جوانبها عنده ؟•

٢ ـ حياة هوسرل ومؤلفاته

أ ـ عاش هوسرل فيما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) وكان من أسرة يهودية ألمانية متوسطة الحال ، ولا توجد أحداث هامة في طفولته وصباه سوى ميله الشديد للدراسة والبحث في مجال العلوم الرياضية التي أغرم بها ، حتى انه التحق بجامعة « لايبتزيج » للتخصص في دراسة الرياضة والعلم الطبيعي ، حيث اتسعت دائرة الدراسة بعد ذلك لتشمل الفلك والفلسفة وعلم النفس . لكن هوسرل لم يكمل دراسته في تلك الجامعة ، وانتقل الى جامعة « فريدريش فيلهلم » ببرلين ليتخصص أكثر في دراسة الرياضة بالذات على أيدي أشهر أساتذة الرياضة الالمان في عصره ، حيث بدأ يعرف قيمة اليقين الرياضي ، وتكونت لديه بعض الافكار الاولية عن ضرورة تحويل الفلسفة الى علم يقيني دقيق كالرياضة ، بدلا من أن تصبح مذاهب متناقضة ومتناثرة لا توصل الى حقيقة واحدة .

لكن سعي هوسرل وراء المزيد من التخصص في دراسة الرياضة جعله ينتقل الى جامعة فيينا ، حيث أنهى هناك دراسته الجامعية للرياضة ، وأعد رسالة عويصة في

فلسفة الرياضة حصل بها على درجة الدكتوراه عام ١٨٨٣، وبدأ بعد ذلك يبذل جهوده الخاصة للاستزادة من دراسة الفلسفة والمنطق وعلم النفس ، حيث تتلمذ على يد أشهر أساتذته « برنتانو » وذلك الى جانب عمله في تدريس الرياضة بجامعة برلين ، ثم تحول بعد ذلك الى جامعة « هاللي » ليقوم بتدريس علم النفس ، وبعدها عمل في تدريس الفلسفة بجامعة «جوتنجن» ثم جامعة «فريبورج» حتى أخريات حياته •

كان هوسرل يهوديا ــ وان لم يتعصب لدينه اطلاقا ــ وفي نفس الوقت كانت النازية في ألمانيا في عصره تستعد لخوض الحرب العالمية الثانية ، وبدأ عداء النازيين لليهود يشتد تدريجيا ، خاصة المشاهير منهم في ألمانيا الذين ازداد اضطهادهم وتحقيرهم ، الامر الذي اضطر معه « هوسرل » الى التنازل عن كرسي أستاذية الفلسفة في الجامعة لتلميذه « هايديجر » واعتزل الحياة للقراءة والكتابة حتى توفي عام ١٩٣٨ ، وكانت ألمانيا على أبواب الحرب العالمية الثانية وازدادت حملة النازي على اليهود ، فخاف تلامذة هوسرل على مؤلفاته ومخطوطاته من المصادرة والاحراق بعد وفاته ، فقاموا بنقلها سرا الى بلجيكا ، كما هرّبوا مكتبته وكافة محاضراته الى هناك ، حيث أسسوا بعد ذلك « أرشيف هوسرل » في بلدة

« لوفان » البلجيكية ، والذي أصبح يتبع الجامعة هناك، ويقوم على إدارته ونشر مؤلفاته المخطوطة عدد من تلامذة هوسرل المخلصين .

ب ــ أما مؤلفات هوسرل فهي عديدة متنوعة ، بعضها كتب ومحاضرات ومقالات مطبوعة ومنشورة ، والبعض الآخر عبارة عن مخطوطات لم تخرج بعد الى النور ، وهي محفوظة في أرشيف لوفان ، ومؤلفات هوسرل تتشعب الى ميادين الرياضة والمنطق وعلم النفس والفلسفة . وتسعى كلها لتحقيق هدف هوسرل بتأسيس علم كلي يقيني جديد يكون أساسا لشتى العلوم والمعارف الاخرى ، هذا العلم هو « الفينومينولوجيا » : وفيما يلي أسماء الكتب الهامة حسب تاريخ صدورها :

« عن مفهوم العدد » ١٨٨٧ « فلسفة الحساب » ١٨٩١ « محاضرات في جبر المنطق » ١٨٩١ « أبحاث منطقية » ١٩٠٠ « الفلسفة كعلم دقيق » ١٩١٠ « أفكار نحو فينومينولوجيا خالصة وفلسفة فينومينولوجية » ١٩١٣ « الفينومينولوجيا » ١٩٢٧ وهي مقالة كبيرة في دائرة المعارف البريطانية « المنطق الصوري والمتعالي » ١٩٢٩ « تأملات ديكارتية » ١٩٣١ « أزمة العلوم الاوربية والفينومينولوجيا المتعالية » ١٩٣٦ « التجربة والحكم » ١٩٣٩ . هذا بالاضافة الى أن هوسرل كان

يشرف على تحرير واصدار مجلة فلسفية دورية خاصة به وبتلامذته اسمها « الكتاب السنوي للفلسفة والابحاث الفينومينولوجية » وقد صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عام ١٩٣٩ وتوالت بقية الاجزاء في غير انتظام زمني ، حتى اكتملت أحد عشر جزءا صدر آخرها عام ١٩٣٠ ، وكلها تضم مقالات متنوعة بقلم هوسرل وتلامذته الذين أصبحوا من أقطاب الفينومينولوجيا حاليا .

كما أن أرشيف هوسرل في لوفان ببلجيكا يضم بين جدرانه مئات الآلاف من الصفحات المكتوبة بطريقة الاختزال وبخط يد هوسرل ، وهي تحتوي على عشرات الموضوعات التي يعالج فيها شتى جوانب الفينومينولوجيا، والتي يعمل القائمون في الارشيف حاليا على نشرها تباعا.

٣ ــ تكوين الفينومينولوجيا عند هوسرل

أ ــ كيف تكونت الفينومينولوجيا في تفكير هوسرل ؟ وما هي المراحل التي مر بها تفكيره حتى وصل الى وضع صورتها النهائية في أخريات حياته ؟ بدأ هوسرل أولا باعتناق النزعة النفسية التي رد اليها الرياضة ، ثم رفض هذه النزعة النفسية والاتجاه التجريبي وانقلب يعاديها عند دراسته التالية للمنطق ، حيث انتهى بعد ذلك الى وضع علم نفس جديد كان بداية تكوين الفينومينولوجيا ، ثم

أكمل أخيرا الصورة النهائية لهذا العلم الجديد من حيث الهدف والمنهج •

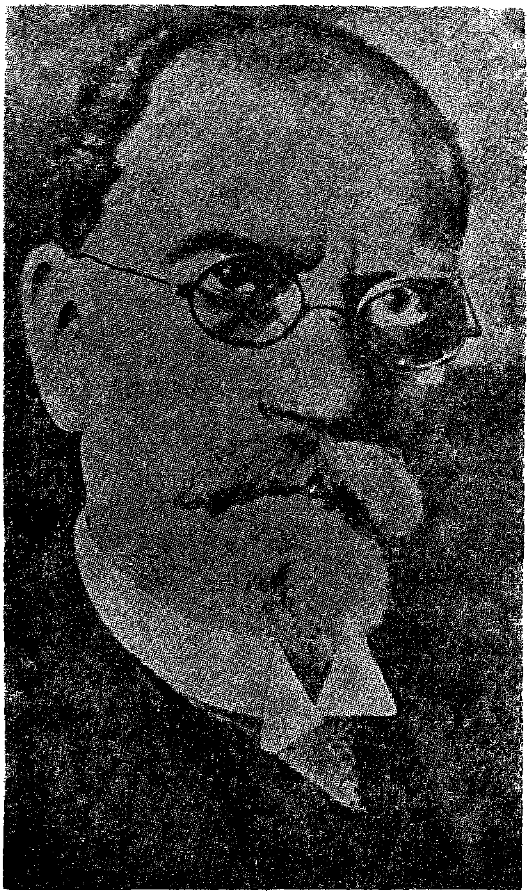
في أواخر القرن التاسع عشر ظهر تيار مثالي ميتافيزيقي حمل لواءه أتباع الكانطية الجديدة وفي مقدمتهم « ليبمان » و « فولكيت » وغيرهم ، وذلك الى جانب تيار واقعي مادي علمي ترتد جذوره الى « دارون » و « هيكل » وغيرهم ، ثم التحم التياران ليخرج منهما تيار ثالث وسط يجمع بينهما ، وكان أغلب أعلام هذا التيار الثالث من باحثي علم النفس مثل « لوتزه » و « فشنر » و « فونت » ، حيث تابعهم بعد ذلك «برنتانو» و«ما ينونج» ثم تلميذهم المباشر «هوسرل» •

وكان الموضوع الذي تعرضوا لدراسته هو محاولة حل مشكلة العلاقة بين فعل الادراك من جهة ، والموضوعات المدركة من جهة أخرى ، وبيان كيف يتم الالتقاء بينهما• لهذا كانت دراستهم تجمع بين علم النفس التجريبي الواقعي والمنطق الصوري المثالي ، وكان هذا هو السبب في أن يطلق المؤرخون على الاتجاه الثالث اسم « علم النفس الميتافيزيقي » الذي لم يكن قد أكمل بعد صورته التجريبية ، وكان هوسرل مع أساتذته ضمن اتباع هذا الاتجاه في بداية حياته الفلسفية ، فكان معجبا بعلم النفس التجريبي ، ومن ثم شرع في دراسة الرياضة

ليردها الى أصول نفسية ، وذلك في كتاباته الاولى عن فلسفة الحساب ، وانتهى الى وجود فعل نفسي يقوم تجريبيا بتوحيد العناصر الفردية ، هو فعل « الارتباط الجمعي » الذي يجعل تلك العناصر الفردية تأخذ صورة عقلية واحدة ومجردة ، وذلك دون حاجة الى تفسيرات عقلية أو منطقية يرد اليها الرياضة . وكانت هذه النتيجة بداية تفكير هوسرل في تحويل الفلسفة الى علم كلي دقيق مثل الرياضة التي ترتد بالتحليل الىعناصر تجريبية.

ب ـ لكن هوسرل عاد بعد ذلك ـ عند دراسته للمنطق ـ الى الثورة على الاتجاه النفسي التجريبي السابق ، ووجد أن تحليل الرياضة وكذلك تحليل الاسس النفسية الخاصة بها ترتد في النهاية الى علم المنطق ، وبدأ ينقد كل ما هو تجريبي مادي لانه سيكون بالضرورة جزئي متغير ، لا يصلح لاقامة علم يقيني جديد يكون أساسا لكل العلوم والمعارف البشرية ، وقد احتاج هذا الامر منه أولا اصلاح علم النفس التجريبي ، وكذلك اصلاح المنطق الصوري القديم ، ليخرج منهما بعلمين جديدين يؤسس عليهما بعد ذلك العلم اليقيني الكلي الذي هو « الفينومينولوجيا » .

من أجل هذا كله تحول هوسرل الى مهاجمة علم النفس التجريبي ونقده لانه يبحث في وقائع جزئية



إدموند هوسرل

١٨٥٩ – ١٩٣٨

متغيرة ، واستبداله بعلم نفس آخر أساسه « فعل القصد » الـــذي يعني أن الشعور « يقصد » موضوعه ليدركـــه بواسطة هذا الفعل ، وقرر أن الشعور المجرد لا وجود له، لان الشعـــور بطبيعته هو شعور بشيء وليس شعـــورا خاويـــا، ذلك هو علم النفس القصدي أو علم النفـــس الفينومينولوجي الذي أقامه هوسرل • وفي نفس الوقت غيّر المنطق الصوري وحوّله الى منطق متعال ، لا تفرقة فيه بين معياري وواقعي ، وانما هو في جوهره فكر كلي وماهيات مجردة ، وأخيرا بعد هذا الاصلاح نجد هوسرل يشرع في تأسيس الفينومينولوجيا في صورتها النهائيـــة كعلم كلي وصفي يقيني •

٤ ــ تعريف الفينومينولوجيا ومنهجها الوصفي

أ ــ قام هوسرل بتعريف الفينومينولوجيا تعريفات متعددة ، خلاصتها أن الفينومينولوجيا علم كلي شامـــل ومنهج فلسفي وصفي جديد ، وهي الفلسفة الاولـــى ، هدفها ادراك الماهيات في الشعور ، ووضع الاسس العامة لكـــل المعـــارف والعلـــوم الممكنـــة التي تبـــدأ منهـــا الفينومينولوجيـــا باعتبار أنها علم كلي أو منهج شامـــل للمعرفـــة • لكن ما هي نقطة البدايـــة والانطلاق عنـــد هوســـرل في تأسيس هذا العلم ؟ هل يبدأ من الموقـــف

الطبيعي فيكون واقعيا ، أم من الموقف الذاتي فيكـــون مثاليا ؟ رفض هوسرل من حيث المبدأ أن يكون واقعيا أو مثاليا ، وانما أراد من الفينومينولوجيا أن تحتويهما معا ، وأن تكون أعلى من التفرقة بينهما ، وأن توفق بينهما في ميــدان واحد محايد هو الشعــور • حيث أن وظيفــة الفينومينولوجيا هي وصف عملية الادراك فقط وتحليل الشعور لاكتشاف الماهيات الكلية الكامنة فيه ، والتــي تقــوم عليها كل معرفتنا وعلومنـــا • وحيــث تصبــح الفينومينولوجيا حينئذ علما كليا شاملا وأساسا ماهويــا يقينيا لكل العلوم الاخرى •

ولتحقيــق هذا كله قام هوسرل أولا برد العالــم الخارجي في صورته الطبيعية الى الذات أو الأنا التي هي في حقيقتها تمثل الشعور ، وهذا ما أسماه بـ «عملية الرد» الــذي جعله نوعين : رد ماهوي نهمــل فيه الاحــداث الجزئية والمادية للاشياء ، ونكتفي باستخلاص ماهيتهــا الــكلية • ثم رد متعالي نعلق فيه الحكم على الاشيــاء المادية الخارجية لحين فحص ماهيتها وتحديد معانيهــا ، والتوقف عن الحكم عند هوسرل يعني أيضا وضع العالم بين قوسين مؤقتا لنبحث في ماهيته باعتباره ظاهرة مجردة وقائمة على الشعور وتحتاج الى معاني متعددة يضفيهــا عليها الأنــا •

ب ـ يقـوم الأنا ـ بعد الرد السابق ـ بعملية وصف لهذه المدركات كما هي قائمة في الشعـور ، دون تنظيمها في صورة نسقية لا تتفق مع حقيقتها الواقعية ، كما يقوم الأنا أيضا بتحليل الشعور ومدركاته ، وذلك لادراك الماهيات الكامنة فيه . وأثناء عملية الوصف والتحليل تلك نجد أن الشعور في حالة اتجاه دائم وقصد مستمر نحو العالم الخارجي لادراكه ، لانه بدون ادراك هذه الاشياء الخارجية لا يمكن أن يكون شعورا اطلاقا ، اذ أن اسمه كان كذلك لانه شعور بشيء ، والشعور المجرد لا وجود له . وفي نفس الوقت نجد أن الاشياء الخارجية الطبيعية لا معنى لها اطلاقا بمفردها الا اذا تم ادراكها بواسطة هذا الشعور واستخلاص ماهيتها واضفاء المعاني المختلفة عليها بواسطة الأنا . واتجاه الشعور الدائم لادراك الاشياء ثم استعداد الاشياء وقابليتها للادراك ، هذه العملية المترابطة هي التي يطلق عليها هوسرل اصطلاح «الاحالة المتبادلة» أو «فكرة القصدية» التي يتم من خلالها حدس الماهيات الكلية في الشعور .

بعد عملية الحدس تلك نعود ثانية الى العالم الخارجي الذي علقنا الحكم عليه سابقا ، وذلك لكي نحذف منه القوسين ونضفي عليه المعاني الحقيقية التي استخلصناها من الماهيات السابقة ، حيث يصبح العالم

حينئذ ممكن الادراك ومفهوم المعنى هما لو أخذناه هكذا على علاته دون تحليل ، وعما لو أدركناه ككل دون أن نكشف خصائص ماهيته . وادراك هذه الماهيات المجردة يمثل جوهر العلم الكلي اليقيني الذي سعى هوسرل الى تأسيسه ، حيث تصبح الفلسفة بدراستها الوصفية التحليلية لهذه الماهيات المجردة هي الاساس الاول لكل معارفنا ، وهي العلم الكلي الشامل لشتى العلوم الاخرى الممكنة .

الفصل السابع

الوجوديّة عِندَ جَانْ بول سَارتر

١ ـ عوامل وظروف نشأة الوجودية

أ ـ كان طغيان الاتجاه المادي التجريبي مع السيطرة العقلية الصارمة ، سببا في حدوث رد فعل مضاد تمثل في التيار الروحي المعاصر • وقد تكرر نفس الوضع مرة أخرى عندما اتسع نطاق التحليل الرياضي والتجريب العلمي ، وامتدت جذورهما الى كافة الميادين الطبيعية والانسانية أيضا ، الامر الذي أدى الى محو انسانية الانسان الحي ؛ والقضاء على طبيعته الحيوية التي لا يصح ـ من وجهة نظر البعض ـ اخضاعها للتحليل الرياضي الصوري ، ولا يمكن تطويعها للتجريب العلمي الآلي ، لان الانسان في جوهره واقع بشري متطور ، كما أن التجربة الانسانية في حقيقتها ليست جامدة مثل الطبيعة ، وانما هي تجربة نابضة حية ، لها خصائص مغايرة تماما لغيرها من الظواهر الاخرى ، لهذا فان استخدام مناهج التحليل الرياضي وطرق البحث العلمي في دراسة الانسان يعني بالضرورة أن يصبح الانسان مجرد آلة أو شيء دون أن يكون انسانا •

حقا ان العلم نافع والرياضة مفيدة ، لكن بشرط أن لا تطغى على الجوهر الحيوي للانسان ، وقد أدى هذا الامر بكثير من الفلاسفة المعاصرين الى الثورة على هذه الاتجاهات الرياضية والعلمية السابقة ، ومحاولة تخليص الانسان من قيودها ، ثم دراسة التجربة الانسانية بما يتفق مع طبيعتها الحقيقية ، والعودة الى الوجود الانساني الحي لدراسته في واقعه الخصب المتطور . لذلك ظهر هذا الاتجاه الانساني الجديد الذي كان شعاره الاساسي هو : « الرجوع الى الانسان » .

كما حاول اعلام هذا الاتجاه اكتناه العالم الداخلي للانسان ، خاصة بعد اعلان « فرويد » نظرياته عن اللاشعور الذي أصبح له دور كبير فيحياة الفرد وسلوكه، لذلك يكون من الاجدى للانسان الاستمرار في كشف وجوده الانساني ومكوناته المتطورة التي هي الاصل في أشكال سلوكه . لقد فتح فرويد الطريق أمام اكتشاف الحقيقة الانسانية الداخلية ، فتابعه بعد ذلك العديد من المفكرين والفلاسفة الذين ساروا في نفس الاتجاه الانساني لكن بأساليب ومناهج أخرى ، وذلك في محاولة منهم لتأكيد تمايز الانسان الحي عن الطبيعة الجامدة ، والكشف عن الامكانيات اللانهائية في التجربة الانسانية، والتي لم ينتبه اليها أحد من قبل بسبب الانبهار بالعلم

التجريبي في ارتباطه بالرياضة التحليلية ، والاعتقاد خطأ في امكـــان تطبيق هذا كله على دراسة الانسان وتجاربـــه الشعورية بكل ما فيها من خصوبة وحيوية . ان الانسان هـــو الانسان وليس الطبيعة ، والفروق جوهرية بينهمـــا ــ رغم وجود عناصر اتفاق ــ الا أن الطبيعة في النهايـــة جامـــدة والانسان حي ، لذلك يجب أن يعيد الفلاسفـــة النظر الى الانسان من جديد للمحافظة على انسانيته التي لا يمكن انكارها ولا اغفال حقيقتها اطلاقا .

ب ــ وكان من ضمن العوامل التي أدت الى ظهور الاتجاه الانساني هو ثورة الفلاسفة والمفكرين والعلماء على المطلق الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر . كان نيوتن قد وضع أساس المطلق في العلم ، وانعكس هـــذا الوضع على الفلسفة ، فأصبحت الحقيقة مطلقة كما نادى بذلك من قبل « كانط » ثم تابعه أشهر المثاليين من بعده « هيجل » ، إن الانسان الحقيقي عندهم هو الانســـان الكلي الذي تتمثل ماهيته في العقل النظري ، أما جزئيات هذا الانسان المطلق والتي تتمثل في زيد وعمرو وعبيد من الناس فإنها تبديات متغيرة للحقيقة الكلية ، ولا قيمة لهذا الوجود الفردي الجزئي المتغير .

وهكذا أدى هذا الاتجاه المثالي المطلق الى القضاء عـــلى فردية الانسان ومحو حقيقتـــه المتعينة ووجـــوده

الواقعي المعاش ، مع اهمال تجاربه الفردية الحية التي تمثل الحقيقة الانسانية المشاهدة • لذلك بدأ الفلاسفة المعاصرون الثورة على فكرة المطلق ورفض المثالية التي جعلت وجود الانسان الفرد كأن لا قيمة له ، رغم انه يمثل الواقعة الحقيقية الوحيدة والملموسة التي تؤكد الوجود الانساني • وقد كان الفيلسوف الدانماركي الوجودي « كيركجورد » هو أول من تنبه الى هذه الحقيقة ، فثار ضد مثالية هيجل المطلقة ووضع أول أساس سار عليه بعد ذلك الفلاسفة الوجوديون من بعده، وهو الرجوع الى التجربة الانسانية الفردية الحية التي تتمتع باستقلال ذاتي وبخصوبة لا نظير لها في الكائنات الاخرى •

ج ـ وبالاضافة الى العوامل السابقة التي أدت الى ظهور الاتجاه الانساني الوجودي ، فاننا نلاحظ أن ظروف المجتمع الاوربي بالذات في القرن العشرين كانت أيضا ضمن تلك العوامل • لقد عاشت أوربا حربين عالميتين مدمرتين ؛ كانت نتائجهما انتصار البعض وهزيمة البعض الآخر ، وأصبحت مشكلة حياة الانسان ومصيره مجالا لتأمل الفلاسفة ومحاولاتهم البحث عن حلول لها • كما أن الحرب والاستعمار مع الغزو والقهر أدت كلها الى ظهور مشكلة حرية الانسان الفرد وعلاقته بالآخرين ،

لذلك تعرض الفلاسفة لمناقشة موضوع مسئولية الانسان الفرد ، ثم مناقشة القلق المرتبط بهذه المسئولية والذي ظهر في نفسية الاوربي المعاصر نتيجة الحرب والدمار • وهكذا نجد أن تلك الظروف أدت الى تحويل الفكر الاوربي عامة الى بحث مشكلات الانسان - خاصة الحرية والمسئوليات - في صورة جديدة تتناسق مع هذه الظروف ، ومن ثم ظهر الاتجاه الوجودي الانساني الذي تفرغ فلاسفته لبحث تلك المشكلات وبيان دور الانسان الفرد بالنسبة لاحداث القرن العشرين •

٢ - مشاهير الفلاسفة الوجوديين ومناهجهم

أ - وقد تمثل هذا الاتجاه الانساني الجديد في المذاهب الفلسفية الوجودية التي ظهرت في القرن العشرين، والتي كانت بدايتها ثورة « كيركجورد » على مثالية « هيجل » المطلقة ومحاولته تأكيد قيمة الوجود الانساني الفردي وبيان خصوبة التجربة الوجودية الحية التي يعيشها الفرد • وقد تابع كثير من الفلاسفة المعاصرين هذه الثورة الوجودية داخل ذلك التيار الذي وضع بذوره في القرن التاسع عشر « سيرين كيركجورد » ١٨١٣ - ١٨٥٥ في ثورته لتأكيد وجوده الفردي ضد مثالية هيجل المطلقة • لكن فلسفته لم تجد في تربة القرن

التاسع عشر ما يساعدها على النمو ، لذلك ظلت مندثرة حتى عاد لاكتشافها فلاسفة القرن العشرين وبدأوا انطلاقاتهم الفلسفية من هذه الثورة ، لكنهم اختلفوا في الطريق وتشعبوا في دروبها ؛ فظهر اتجاه وجودي ألماني حمل لواءه « مارتن هايديجر » المولود في ١٨٨٩ وكذلك « كارل ياسبرز » المولود في ١٨٨٣ وهما من الفلاسفة الاحياء المعاصرين • كما ظهر اتجاه وجودي فرنسي حمل لواءه « جان بول سارتر » المولود في ١٩٠٥ و « جابرييل مارسيل » المولود في ١٨٨٩ و « موريس مارلوبونتي » (١٩٠٨ — ١٩٦١) •

وقد كان تأثير المدرسة الوجودية الفرنسية كبيرا داخل فرنسا بالذات حيث ظهر فيها مذهب فلسفي جديد يعتبر امتدادا للوجودية هو « المذهب الشخصاني » الذي أسسه « ايمانويل مونييه » وتابعه فيه فلاسفة آخرون معاصرون • ويلاحظ أن « جان بول سارتر » هو أشهر الفلاسفة الوجوديين المعاصرين في العالم أجمع لان نشاطه الفكري لم يكن قاصرا على الفلسفة الخالصة ؛ وانما امتد الى الادب والمسرح ، والفن والسياسة ، كما كان داعية للسلام العالمي مثل الفيلسوف التحليلي «برتراند راسل» •

ب — بحث الفلاسفة الوجوديون عن منهج يستخدمونه في دراسة الانسان باعتباره ظاهرة حية، وكان

من الطبيعي أن يرفضوا المنهج التجريبي وكذلك منهج التحليل الرياضي ، ووجدوا أن أقرب المناهج الى وجهة نظرهم هو المنهج الفينومينولوجي الذي وضعه «هوسرل» من قبل ، تمهيدا لدراسة الانسان والعالم بواسطته. لكن هوسرل اكتفى بوضع المنهج وكشف مكونات الفعل الشعوري القصدي دون أن يقوم بتطبيقه ، وذلك لانه وضع العالم كله بين قوسين مؤقتا ، وعلق الحكم عليه لحين الانتهاء من مهمته السابقة ، ثم يعود بعدها الى رفع القوسين من العالم ويمارس اصدار الاحكام عليه . لكن هوسرل لم يقم بهذه الخطوة التي قام الوجوديون بعد ذلك بتنفيذها . لقد رجعوا الى الوجود المعلق سابقا ليدرسوه باعتباره ظواهر شعورية وتجارب حية يعيشها الانسان ، واستخدموا في ذلك المنهج الفينومينولوجي الذي ظهر بوضوح في فلسفة « هايديجر » و « سارتر » و « بونتي » وان كان بعضهم عاد وتحول في أواخر فلسفته الى المنهج الجدلي مثل « سارتر » بعد محاولة تطويعه بما يتفق مع الطبيعة الانسانية الحية . والآن ما هو موجز حياة سارتر والاحداث التي عاشها ؟ وكيف أثرت على اتجاهاته الفكرية ومذهبه الوجودي ؟...

٣ ـ حياة جان بول سارتر ومؤلفاته

أ ـ ولد « جان بول سارتر » عام ١٩٠٥ وكان أبوه ضابطا في البحرية الفرنسية ، كما كانت أمه تنتسب الى الفيلسوف الطبيب والمفكر العالمي « ألبرت شفايتزر » ، وقد توفي والده وهو في الثانية من عمره ، فعاش مع أمه في كنف جده الذي عني بتعليمه وتربيته أشد عناية حتى أتم مرحلة الدراسة الثانوية ثم التحق بالسربون ، وكان في هذه الاثناء قد قرأ الكثير وتثقف بالعديد من ألوان الفكر والادب والفلسفة ، فاتجه للتخصص في هذه الدراسات بالجامعة ، وبعد تخرجه عمل بتدريس الفلسفة في المدارس الثانوية ، ثم أمضى مدة تجنيده العسكري في أعمال كتابية بسبب اعفائه من التدريبات العسكرية لضعف نظره ، وبعد ذلك عاد سارتر الى الحياة الاجتماعية والفكرية من جديد بعد أن تعرف على زميلته في الدراسة الجامعية « سيمون دي بوفوار » التي أصبحت بعد ذلك رفيقة عمره اجتماعيا وفلسفيا .

بدأ سارتر حياته الفكرية بتعلم اللغة الالمانية ، ثم التعمق في دراسة الفلسفة الالمانية المعاصرة ، واقتنع بآراء « إدموند هوسرل » الخاصة بالفينومينولوجيا ، كما تأثر بأفكار الفيلسوف الوجودي « مارتن هايديجر »، حيث

بدأت معالم اتجاهاته الفلسفية تتضح تدريجيا منذ هـذا الوقت ، وشرع في بعض المحاولات الفلسفية الاولى يطبق المنهج الفينومينولوجي في دراسة عدة ظواهر انسانيـة كالتخيـل والانفعـال ، حيـث تبلـور هـذا التأثـير الفينومينولوجي بعد ذلك في صورة فلسفية واضحة وفي مذهب وجودي متكامل عرضه سارتر في كتابه المشهور « الوجود والعدم » •

ب ـ وكان سارتر في هذه الاثناء يعيش تطـورات سياسية ارتبطت بأحداث المجتمع الفرنسي قبل الحـرب العالمية الثانية وأثرت في أفكاره الفلسفية بعد ذلك ، فقد شعر بالظلم الواقع على الطبقة العاملة فوقف الى صفهـا ثائرا على الحكومة ، واتخذ لنفسه موقفا يساريا اعتقـد من خلاله امكان تقويض نظام الحكم الرأسمالي واحلال النظـام الاشتراكي مكانه ، لذلك شارك في مظاهـرات الجبهة الشعبية التي كانت تعمل ضد الحكومة ، لـكن اعلان الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ جعل جميع أفـراد الشعب وكل الاحزاب تتكاتف لصد الغزو النازي الذي تعرضت له فرنسا عام ١٩٤٠ •

قام سارتر في هذه الظروف العصيبة بأداء واجبـه الوطني فحمل السلاح في الحرب ضد الالمان، لكنه سرعان ما وقع أسيرا عندهم ، وظل في الاسر مدة ثم أفرج عـنه

بعد أن احتل الالمان فرنسا وسيطروا عليها تماما ، فسخر فكره وفلسفته وعمله لمقاومة الاحتلال والسعي وراء الاستقلال والتحرر ، فأنشأ حركة سرية لمقاومة الالمان اشترك معه فيها عدد من مفكري فرنسا مثل « موريس مارلوبونتي » و « سيمون دي بوفوار » وغيرهم من الادباء والشعراء الفرنسيين ، وكانوا يصدرون الجرائد السرية والمنشورات الثورية . في ظل هذه الظروف بدأ سارتر يكتب أهم مسرحياته التي عكس فيها آراءه الفلسفية وجعلها ذات قالب أدبي يمكن للجمهور فهمه واستساغته عما لو كان في قالب فلسفي جامد . وكانت أشهر مسرحياته « الذباب » التي يدعو فيها الفرنسيين الى الثورة على الاستعمار الالماني والمطالبة بالحرية . كما انه انتهى في هذه الفترة أيضا من كتابه المشهور « الوجود والعدم » الذي ناقش فيه قضية الحرية وقرر أن الوجود الانساني في جوهره حرية خالصة ، لكن تلك الحرية ليست عشوائية مطلقة ، وانما هي التزام بمواقف انسانية ـ اجتماعية وسياسية ـ لا يمكن اغفالها .

ج ـ وبعد أن تحررت باريس عام ١٩٤٤ برز سارتر على مسرح الفكر الفرنسي وسارت فلسفته وأعماله الادبية في نفس الخط التحرري السابق ، وكانت مؤلفاته قد ذاع صيتها ، فاستقال من العمل في التدريس وتفرغ

للكتابة ، حيث أصدر مجلة سياسية وفلسفية باسم « العصور الحديثة » كان ينشر فيها أفكاره هو وزملاءه من مفكري فرنسا المناضلين ضد الاستعمار والرأسمالية والدكتاتورية ، كما أبرز فيها معالم الاتجاه الفلسفي الوجودي الجديد الذي بدأ يظهر في فرنسا . وكانت دعوة سارتر للحرية السياسية ليست قاصرة على بلاده ، وانما امتدت الى كافة المستعمرات حتى لو كانت فرنسية، فوقف الى جانب الجزائر في ثورتها ضد الاستعمار الفرنسي ، كما حارب الاستعمار الامريكي بشتى صوره ، وساند قضايا الشعوب الصغيرة ، فكان بذلك ثوري النزعة تقدمي الاتجاه .

ورغم أنه كان يساريا اشتراكيا في بداية حياته وفي اطار كفاحه الفكري ، لكن الحزب الشيوعي الفرنسي بدأ يعاديه بسبب وجوديته الفردية التي تتعارض مع الشيوعية الماركسية ، لانه اتخذ لنفسه المنهج الفينومينولوجي بدلا من المنهج الجدلي ، وكانت هناك مساجلات فلسفية وسياسية بين سارتر والشيوعيين الفرنسيين ، حاول هو أن ينتهي فيها الى حل وسط . ورغم انتقاداته للمنهج الجدلي المادي ، الا أنه تحول للاخذ به في آخر تطوراته الفكرية بعد أن حوره وعدله بما يتفق مع اتجاهه الانساني الوجودي .

د ـ وفيما يتصل بمؤلفات سارتر فقد تعددت وتنوعت في شتى ميادين الفلسفة والسياسة والادب (قصص ومسرحيات) والكتب الفلسفية التي أصدرها هي : « التخيل » ١٩٣٦ ، « نظرية في الانفعالات » ١٩٣٩، « التخيل ... دراسة سيكولوجية فينومينولوجية للخيال » ١٩٤٠ ، « الوجود والعدم .. بحث في الأنطولوجيا الفينومينولوجية » ١٩٤٣ ، ونلاحظ أن كل هذه المؤلفات عبارة عن تطبيقات للمنهج الفينومينولوجي على ظواهر انسانية وجودية متعددة، أخذت شكلا جديدا على يدي سارتر . لكن منذ عام ١٩٦٠ بدأ سارتر يتحول الى المنهج الجدلي ، فأصدر كتاب « نقد العقل الجدلي » حيث يقبل فيه بعض جوانب هذا المنهج ، ويحدد كيفية تطبيقه في دراسة الوجود الانساني الحي .

وقد أصدر سارتر الى جانب ذلك عددا من المقالات الفلسفية والادبية والسياسية مثل « الوجودية مذهب انساني » ١٩٤٦ ، « ما الادب » ١٩٤٧ ، « محاورات في السياسة » ١٩٤٩ ، « الماركسية والوجودية » ١٩٦٣ ، « الكلمات » ١٩٦٤ ويؤرخ فيه لحياته وتطوره الفكري. هذا بالاضافة الى مجموعةأجزاء أصدرها باسم «مواقف» تضم مقالات أخرى متعددة . أما انتاجه في الرواية والقصة والمسرح فهو غزير متعدد أيضا أشهره «الغثيان»



جان بول سارتر

مولود عام ١٩٠٥

١٩٣٨ ، « دروب الحرية » ١٩٤٥ وتشتمل على ثلاث روايات داخلية ، ثم « الذباب » ١٩٤٣، «الأيدي القذرة» ١٩٤٨ ، « الشيطان والآلة » ١٩٥١ ، « سجناء ألطونا » ١٩٦٠ ، وغيرها كثير مما يعكس أفكاره في قوالب أدبية يمكن للجمهور العادي أن يتذوقها ويتقبلها بسهولة ، ولعل هذا هو السبب في انتشار فلسفة سارتر على نطاق واسع في القرن العشرين •

٤ ـ خلاصة آراء سارتر في الوجودية

أ ـ والآن ماذا يعني سارتر بالوجودية ؟ ولماذا يقول عنها أنها فلسفة انسانية ؟ يقابل سارتر بين وجود الشيء الفعلي من جهة ، وبين ماهيته أو مجموعة صفاته الجوهرية من جهة أخرى ، حيث يرتبط كل منهما بالآخر واقعيا ، لكنه يتساءل أيهما أسبق من الآخر ؟ هل يوجد الشيء أولا ثم تتكون بعد ذلك ماهيته وصفاته ؟ أم أن الماهية والصفات تكون أسبق من وجود الشيء نفسه ؟ أجاب سارتر ان الاشياء الجامدة والمصنوعة تكون ماهيتها أسبق من وجودها ، وضرب مثلا لذلك بعملية اخراج سكين أو كتاب الى الوجود ، فالصانع حدد في ذهنه ماهية هذا الشيء ، كما اتضحت صفاته الجوهرية في عقله ، والتي بناء عليها تم اخراج هذا الشيء الى الوجود،

ومن ثم تكون الماهية هنا أسبق من الوجود ، وهي التي أدت بالشيء الى الخروج الى الواقع، حيث لا يمكن لهذا الشيء بعد ذلك أن يضيف لنفسه ماهيات أو صفات جديدة • لكن الانسان هو الكائن الوحيد العاقل الذي سبق وجوده ماهيته، وهو في هذا يخالف نظرية الفلاسفة المثاليين في القرون السابقة ، خاصة ديكارت الذي قرر أن صفات الانسان وماهيته كانت في عقل الله تعالى ثم خلق الانسان تبعا لها •

لكن سارتر رفض أسبقية الماهية تلك على الوجود، لان هذا يعني الحجر على حرية الانسان وتحديد كافة صفاته مقدما والتي لا يستطيع الفرد أن يتخلص منها ولا أن يعدلها ، كما أعتقد أن مثل هذا القول السابق يعني القضاء على الانسان بالجبرية ، بينما هو يريد للانسان الحرية مع القدرة على اختيار صفاته كما يشاء هو نفسه ، لذلك قرر أن وجود الانسان يسبق ماهيته ، وان الانسان قذف به في العالم من مصدر لم يناقشه سارتر وانما اعتبره مسلمة أساسية، وبعد أن وجد الانسان بدأ يكوّن ماهيته بنفسه ويحدد صفاته كما يشاء ، وبمعنى آخر ، شرع الانسان بعد وجوده في بناء نفسه وصنع ذاته بكامل حريته ، لان هذا العمل هو الذي يميزه عن غيره من الكائنات والموجودات الاخرى •

ب ــ وما دام الوجود أسبق من الماهيــة ، وان الانسان يشرع بعد ذلك في بناء نفسه وتكوين ذاته، لذلك قرر سارتر أن الانسان في أصل وجوده مجرد مشروع ، يحدد هو بنفسه خصائصه وصفاته وماهيته التي يريدها لنفسه ، والتي يعمل على تنفيذها في حياته ، كأن يريد أن يكون شجاعا أو جبانا ، عالما أو جاهلا ، خيّرا أو شريرا ، متزوجا أو أعزبا ، وهكذا في بقية صفاته الخاصة بـه • اذن أسبقية الوجود على الماهية تعني بالضرورة أن الانسان حر في حياته وفي اختيار صفاته ، وهذا الاختيار تأكيد لانسانية الانسان • والاختيار هنا ليس فرديا خالصا ، وانما يقرر سارتر أن الفرد عندما يختار يجب أن يضع في اعتباره أن تلتزم الانسانية جمعاء بهذا الاختيار ، دون أن يلتزم وحده بذلك ، ومن هنا احتاج الامر من الانسان الفرد أن يختار الصفات التي تفيده هو وغيره من الافراد الآخرين ، لذلك أصبح الاختيار هنا يمثل مسئولية كبيرة ملقاة على عاتق الفرد الذي يبني نفسه ، لانه يبني كذلك في نفس الوقت الانسانية عامة •

وقد ترتبت على هذه المسئولية الكبيرة شعور الفرد بالقلق أثناء عملية الاختيار ، هذا القلق ليس هداما ، وانما يدفع صاحبه لحسن اختيار الصفات التي سوف يلتزم بها هو وبقية أفراد الانسانية • ويصبح من واجب

الانســان في عملية الاختيار أن يلتزم تلقائيا بمواقــف انسانية وصفات نافعة يمكن أن تعمل على تقدم المجتمع الانسان .

يمكن بعد ذلك إيجاز آراء سارتر السابقة في بضع كلمات : بما أن وجود الانسان أسبق من ماهيتــه ، اذن فالانسان حر في اختيار صفاته وخصائصه ، لكنه يجب أن يلتــزم في هذا الاختيار الذي ســوف يكون اختيــارا للانسانيــة جمعاء ، ومن هنا ارتبط بالحرية والاختيــار الشعور بالمسئولية وما يترتب عليها من قلق هدفــه البناء والعمل . وهكذا أصبح الانسان محكوما عليه بالحــرية وبكل ما يترتب عليها من نتائج لا يستطيع أن يتخلــص منها اطلاقا .

وحسب هذا الاتجاه السابق في الحرية وجدنا سارتر يقســم الوجود الى ثلاثة أنواع أساسية هــي : أولا : الوجود في ذاته ، ويمثل وجود الاشياء والعالم المــادي والظواهر المرتبطة به ، وهو وجود مليء غير فارغ ، كما أنه وجود لا تسبقه الماهية دائما . ثانيا : الوجود لذاته ، ويمثل الشعور الحي أو الذات أو الانسان عامة ، وهــو شعور بالنقص ، يسعى صاحبه لاكماله دائما وبناء ماهيته بنفسه . ثالثا : الوجود للغير ، وهو نفسه الشعور الذاتي السابــق لكن في ارتباطه بالآخرين ، لأن الذات ليســت

موجودة وحدها في هذا العالم ، وانما ترتبط مع الآخرين بعلاقات متعددة ، وهناك صراع مستمر بين الوجود للذات والوجود للغير ، فالثاني يحاول اجتذاب الاول الى مجال الآخرين ، بينما تسعى الذات لاسترداد ذاتيتها من هذا الجانب الآخر .

جـ ـ كانت تلك خلاصة آراء سارتر الفلسفية التي اهتم بدراستها عن طريق المنهج الفينومينولوجي ؛ لكنه عاد في أخريات حياته وتحول الى المنهج الجدلي ليستخدمه في دراسة الوجود الانساني عام ١٩٦٠ ، وذلك في كتابه الكبير « نقد العقل الجدلي » وكان سارتر في بداية حياته الفلسفية يهاجم الماركسية عامة ، منهجا ومضمونا وفلسفة ، وذلك لاعتقاده أنها قاصرة عن فهم الحقيقة الانسانية ، ومتخلفة عن ركب التطور الفكري البشري ، ومنذ عام ١٩٦٠ حاول سارتر أن يقوم باصلاح الماركسية تمهيدا لادماجها مع وجوديته في وحدة متكاملة .

وقد انتقد سارتر الماركسية في أنها أوغلت في المادية والوجود الطبيعي والشكلية ، وأهملت حقيقة الانسان الحي . كما ان ماركس وأنجلز ولينين طبقوا المنهج الجدلي على الطبيعة الجامدة وكذلك على الانسان الحي دون تفرقة بينهما ، وهذا خطأ كبير لان الجدل عندهم كان طبيعيا وليس انسانيا ، بينما الواجب أن يستخدم الجدل

في دراسة الانسان المتطور النامي بدلا من الطبيعة الجامدة الراكدة . كما ان كثيرا من الماركسيين المعاصرين تطرفوا في رد التاريخ وأحداثه الى قوى خارجية عن الانسان ، واخضاعه لقوانين جتمية صارمة ، لكن سارتر أكد أن الانسان هو صانع التاريخ وأن أحداث المجتمع الانساني لا تتم وفق ارادة خارجية وقوانين حتمية ، وانما تنبع من شعوره الذاتي الداخلي ومن علاقاته مع الآخرين، وهكذا رفض سارتر الجدل المادي الماركسي المتطرف وحاول أن يجعله جدلا انسانيا حيا ، وذلك في محاولة منه لتطوير الوجودية وزيادة خصوبتها ، والرجوع بها من جديد الى مكانها في الصدارة الفكرية على مسرح الاحداث في النصف الثاني من القرن العشرين .

الفصل الثامن

البنائية عِندَ كلود ليفي شتراوس

١ - معنى البنائية وطبيعتها

أ - البنائية هي أحدث مذهب فلسفي ظهر في أوربا حاليا ، ويصفها المؤرخون بأنها مذهب ما بعد سارتر والوجودية ، فاذا كانت وجودية سارتر تعبر عن المجتمع الاوربي في ظل الحرب العالمية الثانية ، فان البنائية تمثل فلسفة المجتمع الاوربي الآن بعد أن نفض عن نفسه آثار الحرب وتطلع للبناء • وكلمة البنائية ترتد لغويا الى أصل لاتيني يعني حرفيا هيئة أو تكوين كلي يضم عددا من الجزئيات المترابطة ، أما الترجمة العربية لهذا المصطلح فتتمثل في كلمة « البنائية » المشتقة من بناء ، حيث يصبح المذهب القائم عليها هو « البنائية » •

أما من الناحية المعنوية فالكلمة تعني أن كل شيء في الوجود عامة والانسان خاصة عبارة عن بناء متكامل يضم بين جنباته عدة أبنية جزئية ، تقوم بينها علاقات محددة هي التي تعطي هذا الشيء بناءه وتوضح وظيفته ، وتبين مكانه ضمن أبنية الوجود الاخرى • وعلى هذا اذا تحول الاهتمام لدراسة هذه الابنية الجزئية الداخلية لأي

بنـــاء كلي متكامل كالانسان مثلا ، فانه يمكن حينئـــذ معرفة وظائفه الحقيقية وكشف العلاقات الداخلية الــتي تربط بين أبنيته الجزئية ، ومن ثم يمكن تفسيره تفسيرا صحيحـــا ، كما يمكن التحكـــم في جزئيات هذا البنـــاء واعادة ترتيب علاقاتها وتغيير وظائفها ٠

ب ــ ان الجسم الانساني عبارة عن بناء ، والانسان نفسه بناء أيضا ، وكذلك الثقافة والمجتمع وغيرها ، كلها عبـــارة عن أبنية متكاملة تضم بين جنباتها أبنية أخـــرى جزئيه ذات علاقات معينة ووظائف محددة ، يمكن كشفها بالدراســـة وتوجيهها وظيفيا الى مستوى أحســـن وأداء أفضل ٠ والاشياء التي يتكون منها البناء لا قيمة لها في حـــد ذاتها ، انما قيمتها في العلاقات التي تربطها بعضهـــا ببعض ، والتي تجمعها في ترتيب معين وتؤلف بينها فـــي نظام محدد يوضح وظيفة هذا البناء ٠

وعـــلى هذا فالبنائية تهتـــم أولا وأخيرا بدراســـة العلاقـــات التي تربط جزئيات كل بناء ، وتهتم بكشـــف الروابـــط القائمة بين الابنية المختلفة بعضها ببعـــض ٠ والبنائية بهذا المعنى تكون منهجا للبحث والدراسة أكثر منها مذهبا فلسفيا جامدا أو علما ثابتا محددا ، انها منهج يدرس العلاقات دون الاشياء ، وذلك بهدف فهم حقيقتها

ثم التحكم فيها واعادة ترتيبها من أجل اصلاحها والارتقاء بها .

٢ - ظروف نشاة البنائية

أ - كانت هناك عدة ظروف أدت الى نشأة البنائية وظهورها في أوربا حاليا ، متخطية بذلك الوجودية في محاولة لاحتلال مكانها تدريجيا ، أول تلك الظروف أن المجتمع الاوربي حاليا في أواخر القرن العشرين ليس هو نفسه المجتمع الذي عاش أوائل هذا القرن . لقد كانت الحرب العالمية الأولى والثانيه سببا في دمار أوربا ، فظهرت الوجودية لتبحث مشكلة الحرية الانسانية وعلاقتها بالمسئولية والقلق والتمرد ، وغير ذلك من مفاهيم الفلسفة الوجودية التي نبعت من جوف تلك الحروب ، ولعل هذا يفسر أسباب انتشار الوجودية بسرعة في شتى أنحاء أوربا منذ بداية نشأتها في القرن العشرين . أما الآن ونحن نقترب من أواخر القرن العشرين فقد تغيرت ظروف أوربا تماما ، وعادت تسعى من جديد للبناء والتعمير بعد أن انتهت آثار الحروب السابقة ، ومن ثم بدأت الوجودية تنحسر تدريجيا — رغم محاولات تجديدها — وذلك لتفسح المجال لظهور البنائية التي تساير الظروف الجديدة للمجتمع الاوربي في البناء

والارتقاء والتطور ، لهذا كانت البنائية بحق هي مذهب ما بعد سارتر والوجودية •

ب ــ أما الظرف الثاني الذي أدى الى نشأة البنائية وظهورها في أوربا حاليا فانه يتمثل في ثورة المجتمع الاوربي على كل جمود مذهبي فكري من شأنه أن يعرقل البناء والتقدم ، والشعور بالحاجة الى اتجاهات فكرية جديدة مفتوحة غير مغلقة ، مرنة غير جامدة ، تساعد على البناء وتساير التقدم • وقد لاحظ المفكرون الغربيون المعاصرون أن الوجودية بدأت تتحول الى مذهب جامد ، كما أن الماركسية أصبحت من وجهة نظرهم مذهبا مغلقا ، لذلك احتاج الامر الى فكر جديد مفتوح يكون أقرب الى المنهج منه الى المذهب ، وهو الذي يتمثل في البنائية، التي لا يمكن انكار أنها استفادت كثيرا من الوجودية والماركسية ، لكن في تركيب جديد ومنهج مغاير يتفق مع الظروف المعاصرة للمجتمع الاوربي •

ج ــ وأخيرا كان الظرف الثالث الذي أدى الى ظهور البنائية حاليا هو السعي لتطوير العلوم الانسانية لتلاحق تقدم العلوم الطبيعية ، حقا كانت هناك محاولات من قبل قام بها « هوسرل » من خلال « الفينومينولوجيا » وكذلك « سارتر » وغيره من الوجوديين ، بالاضافة الى محاولات الماركسيين وغيرهم ، لكن هذه المحاولات لم

تحقق الاهداف المرجوة منها لان الغالبية منهم أوغل في التجريد واهتم بذاتية الانسان دون العلاقات الموضوعية التي يرتبط بها هذا الانسان مع غيره من البشر • ومن هنا ظهرت البنائية في محاولة منها لتحاشي هذه الاخطاء السابقة ، بهدف تطوير العلوم الانسانية عامة ودراسة الانسان خاصة كما يتمثل في شتى علاقاته الموضوعية ، حيث أصبحت البنائية في جوهرها عبارة عن تحليل للبناء الانساني وكشف للعلاقات الموضوعية التي تربط شتى أجزائه ، وذلك بهدف التحكم فيها والارتقاء بها ليلحق الانسان بركب التقدم الذي وصلت اليه العلوم الطبيعية•

٣ — أشهر أعلام البنائية

أ — كان هناك عدد من المفكرين وعلماء الانسان ساهموا في تكوين البنائية حسب معناها السابق، وعملوا على ابرازها في شكل واضح ومتكامل ، وذلك في عدد كبير من المؤلفات والدراسات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية ، ونلاحظ أن غالبيتهم من الفرنسيين ، كما انهم ممن يعملون في حقل الانثروبولوجيا ، أو علم دراسة الانسان والحضارات القديمة والمجتمعات البدائية ، وقد اهتم مفكرو البنائية بدراسة كل ما يتصل بالظواهر الانسانية كاللغة والعادات والاساطير والآداب وغيرها ،

وذلك في محاولة منهم لكشف العلاقات التي تربطها فيما بينهـا • كما نلاحظ أيضا أن أعلام البنائية لم يرفضـوا تمامـا الوجودية أو الماركسيـة وغيرها من المذاهـب المعاصرة ، وانما نظروا اليها نظرة نقدية جديدة، وحاولوا فهمها من خلال وجهة نظرهم البنائية •

ومن ضمن البنائيين الفرنسيين المعاصرين نجد « لوي التوسار » الذي هو في حقيقته ماركسي النزعة ، لكنـه أعاد دراسة الفلسفة الماركسية ومنهجها الجدلي بهـدف تطويرهـا لتساهم فعليا في تقـدم الانسان والارتقـاء بالمجتمع ، ومن أشهر مؤلفاته « قراءة رأس المال » اشترك فيه مع اثنان من الماركسيين الفرنسيين ، وقد حاول فـي هذا الكتاب أن يوسع أفكار ماركـس في « رأس المال » ولا يجعلها قاصرة على النواحي الاقتصادية أو السياسية الجامـدة ، وانما أضفى عليها الكثـير من الدراسـات اللغوية والتاريخية والفلسفية ، لكي لا تقتصر الماركسية على دراسة البناء الاقتصادي فقط ، وانما تتعداه لدراسة الابنية الاخرى في الانسان والمجتمع على السواء • •

ومن أعلام هذا الاتجاه البنائي أيضا نجد « جاك لا كان » الذي استخدم نفس النظرة النقدية السابقة لكن بالنسبة لـ « سيجموند فرويد » فحاول أن يفهم الابنيـة الداخلية للانسان والعلاقات التي تربطها فيما بينها، وذلك

مـن خلال جهود فرويد ، وأصدر كتابا كبيرا بعنـوان « أعمال مختارة من فرويد » تتبع فيه التطور التاريخـي لآراء فرويد في محاولته كشف مجاهل النفس الانسانية والربط بين الابنية الجزئية الخاصة بها، مع كشف العلاقة بيـن الامراض النفسية والحيـاة الاجتماعية والثقافيـة وغيرهـا من بقية الابنية الانسانيـة كالجسم والعقـل والجنس ... الخ .

وقـد برز من بين البنائيـين أيضا عدد آخر مـن الباحثـين تخصصوا في دراسـة بعض الابنية الجزئيـة وتوسعوا في دراسة عدد من الظواهر الانسانية لكشـف جزئياتها وعلاقاتها الداخلية، وذلك مثل « ميشيل فوكو » الذي تخصص في دراسة اللغة مـن حيث أصلها وتركيبها ووظيفتها ، وكذلك « مارولان بارث » صاحب الدراسات المتعددة عن الموضة والازياء في علاقتها بالمجتمع والثقافة والعـادات ، كما نجد « موريس جودليه » الذي وجـه اهتمامه عامة لدراسة الجنس البشري كبناء متكامل ، ثم اهتم خصوصا بالسلالات في تطورها التاريخي والاجتماعي لكشـف شتى العلاقات الخاصة بها ، وأخيرا نجد عالمـا أنثروبولوجيـا يعتبر حاليا أشهـر مؤسس للبنائية هـو « كلود ليفي شتراوس » الذي طغت شهرته على غيره من

أعلام البنائية ، وذلك بفضل دراساته المتعددة في هذا الميدان الانساني الجديد .

ب ـ وجنسية « كلود ليفي شتراوس » فرنسية ، وقد تخصص في الأنثروبولوجيا ، وهو يعمل حاليا أستاذا للأنثروبولوجيا في باريس، ومديرا للمعهد الأنثروبولوجي هناك ، وهو الى جانب ذلك من أشهر علماء الاساطير المعاصرين وأكثر البنائيين غزارة ، فقد أخرج العديد من الدراسات الجادة العميقة مثل « المجتمعات البدائية » ، « الطوطمية اليوم » ، « العقل البدائي » ، « البناءات الجوهرية لصلة القرابة والنسب » ، « عالم في الطريق الى الاندثار » «الاساطير» و « النيء والمطبوخ » وغيرها من الكتب والمقالات المتعددة ، كما صدرت عدة دراسات عن آراء شتراوس وأفكاره ، بعد أن أصبحت له مكانة مرموقة حاليا باعتباره أشهر أعلام البنائية ، وباعتباره من أعمق دارسي علم الانسان والمجتمعات البدائية في العصر الحاضر .

وسوف نستعرض فيما يلي وبإيجاز أهم دراسات شتراوس في مختلف مجالات الأنثروبولوجيا ، حيث نستخلص منها بعد ذلك معالم المنهج البنائي وأبرز خصائصه .

٤ ـ خلاصة آراء شتراوس في البنائية

أ ـ أراد شتراوس في دراسته للعقل البدائي خاصة والعقل الانساني عامة ، أن يؤكد فكرة أن العقل موجود كموضوع طبيعي له أساس عام مشترك بين كافة الاجناس البشرية ، محطما بذلك النظرة التقليدية للعقل الانساني باعتباره يختلف من عصر الى آخر ومن مجتمع الى غيره ، فالانماط السلوكية والفكرية تكاد تكون عامة بين البشر، وذلك في أساسها الجوهري وليس في شكلها الجزئي المتغير ، سواء كانت أنماط السلوك وأساليب التفكير تلك في المجتمعات البدائية أو المتحضرة ، فالانسان البدائي في وسط أفريقيا وغيرها من المناطق البدائية ، يسلك ويفكر مثل الانسان المتحضر في أوربا وأمريكا ، وذلك على أساس مبدأ التعارضات الثنائية أو المزدوجة الموجودة في كل المجتمعات البشرية ، والتي أساسها الايجابية والسلبية مثل الانسانية والحيوانية ، الطبيعة والثقافة ، المطبوخ والنيء ، وغير ذلك مما هو جوهري في العقل الانساني والحياة البشرية • وهكذا يمكن بالدراسات المختلفة اكتشاف المزيد من الانماط السلوكية والفكرية المتشابهة والمشتركة في العقل الانساني •

ويؤكد شتراوس أن هذا يفسر لنا أسباب انجذاب

الانسان المتحضر الى الطبيعة بكل ما تحويه من جمال وبساطة ، ويفسر لنا هذا أيضا مبررات ميل الانسان في حضارة القرن العشرين للارتداد الى طريقة العيش في المجتمعات البدائية ، فالحضارة المعاصرة استنفدت كافة امكانياتها العقلية ، وفقدت كل تجانس بين أفرادها ، وذلك عكس المجتمعات البدائية التي لا زالت تهتدي في سلوكها بمبادىء العقل البسيط ، والتي يتجانس أفرادها في وحدة كلية شاملة أصبحت مفقودة في الحياة المعقدة للحضارة الغربية المعاصرة .

ب ـ يهتم شتراوس أيضا بدراسة الاساطير وتحليلها ليستخلص منها كافة النظم الاجتماعية البدائية الخاصة بها ، ويتتبع هجرة هذه الاساطير وانتقالها بين مختلف المجتمعات ، حيث وجد أنها تحمل في طياتها الصفات العامة للعقل البشري والخصائص المشتركة بين المجتمعات الانسانية ، واكتشف أيضا أن تلك الأساطير تمثل الطاقة المحركة للعقل البشري التي دفعته للانتقال من التوحش الى التحضر ، ومن سيطرة العاطفة الى المعرفة العقلية ، ومن الطبيعة البسيطة الى الثقافة المعقدة ، وهكذا فان الاساطير يمكنها ان تفسر حقيقة تطور البشر من خلال التعارضات الثنائية السابق ذكرها ، وبواسطة اكتشاف العلاقات التي تربطها فيما بينها .



كلود ليفي شتراوس

ويضرب « شتراوس » مثالا لذلك في كتابه « النيء والمطبوخ » الذي يكشف فيه ــ من خلال تحليل الاساطير والعلاقات القائمة بينها ــ ان عملية الطهو تمثل قدرة الانسان على تغيير المأكولات من حالتها الطبيعية النيئة الى حالتها الصناعية المطبوخة ، أي تحويل الشيء الطبيعي الفج الى شيء صناعي انساني .

وهنا يؤكد شتراوس ان وراء عملية الطهو تلك التي تقوم بها كل ربة بيت ، يوجد تراث بشري كبير من الاساطير يوضح العلاقة بين الطبيعة والانسان من جهة ، وبين الانسان وغيره من البشر من جهة أخرى ، وأن مهمة البنائية هي اكتشاف هذه العلاقات الداخلية والابنية الجزئية التي تتكامل فيما بينها لتأخذ شكل بناء واحد يتمثل في عملية الطهو ، حيث يتكامل هذا البناء بدوره مع بناء اللغة وبناء العادات وغيرها من الابنية الانسانية الاخرى .

ويتعرض شتراوس في دراسته ومؤلفاته لظاهرة انسانية أخرى هامة هي القرابة والنسب والزواج ، حيث يتتبع البناءات المختلفة التي تتكامل فيما بينها لتعطي هذه الظاهرة كيانها الواضح ، وهو يرجع في دراسته تلك الى المجتمعات البدائية والاساطير القديمة ، ويظل يتتبع تطورها ويكشف العلاقات القائمة بينها في مختلف قارات

العالم وبين شتى المجتمعات البشرية القديمة منها والحديثة، وفي النهاية استخلص من هذا كله أن المرأة حين تتزوج بالرجل تكون كمن بلغ رسالته بين جماعات الرجال ، ثم أن تزاوج نسلها بعد ذلك في الكبر يتابع استمرار تبليغ هذه الرسالة • وقد لاحظ شتراوس أن النساء في المجتمعات البدائية يمثلن الهدايا التي يتبادلها الرجال ، بالضبط مثل النقود والمحاصيل والاشياء القيمة التي يتبادلها الرجال فيما بينهم ، والمرأة عندهم هي أحد تلك الهدايا ، لكن المجتمع الحديث رفض هذا الشكل الخارجي لزواج الرجل بالمرأة ، وارتفع عن النظر للزواج بالمرأة باعتبارها هدية ، بينما الحقيقة لا زالت كما كانت في المجتمعات البدائية • وقد ناقش شتراوس الانواع المختلفة للزواج والمحرمات في شتى المجتمعات ، حيث أرجع سبب تحريم الزواج من بعض الاقارب الى حاجة المجتمع للتوسع في النسب ، وتوسيع دائرة تبادل الهدايا وحمل الرسائل بين مجتمعات الرجال على أكبر نطاق ممكن •

جـ ـ والآن بعد أن استعرضنا بايجاز بعض دراسات شتراوس لعدد من الابنية الانسانية المختلفة قديما وحديثا ، نريد أن نستخلص معالم المنهج البنائي وأهم خصائصه كما يبدو عند شتراوس وغيره من البنائيين

الآخرين . ان البنائية في جوهرها منهج قبل أن تكون مذهب ، انها جهد مفتوح للكشف عن الحقيقة الانسانية، وليست مذهبا جامدا مغلقا . هي منهج تحليلي وتركيبي للبناءات الانسانية بشتى مكوناتها الجزئية ، وهدف هذا المنهج هو كشف العلاقات الداخلية التي تربط بين مكونات كل بناء ، تمهيدا للتحكم فيها واعادة ترتيبها والارتقاء بمستواها الوظيفي .

ان الاتجاهات التجريبية المعاصرة سواء في العلوم الطبيعية أو الانسانية ، وكذلك غالبية المذاهب الفلسفية التجريبية الحالية ، قد أوغلت كثيرا في دراسة الجزئيات المختلفة لأي ظاهرة في تفردها عن غيرها من الظواهر الاخرى ، وأهملت الشكل الكلي والعلاقات العامة التي تربط بين شتى ظواهر الوجود ، لهذا كانت قاصرة عن ادراك الحقيقة . وقد ظهرت اتجاهات أخرى في بعض العلوم الانسانية بدأت تهتم بالشكل الكلي والعلاقات العامة أكثر من اهتمامها بالمكونات الجزئية ، كما أن عددا من المذاهب المثالية والمطلقة في الفلسفة المعاصرة قصر اهتمامه على هذا « الكل » وجعله في مركز الصدارة دون الجزئيات التي يتكون منها والتي توارت في الخلف ، ولهذا أيضا كانت قاصرة عن ادراك الحقيقة . اذ أن الحقيقة في جوهرها عبارة عن التقاء المكونات الجزئية مع

الشكل الكلي في وحدة مترابطة وبواسطة علاقات محددة لا توجد فيها أولوية لطرف على الآخر .

من وجهة النظر تلك بدأت البنائية تحدد لنفسها وظيفتها وهدفها ، وحاولت أن تجمع بين الجزئيات والكل الذي يضمها في بناء واحد متكامل يقوم على علاقات موضوعية ثابتة ، وكل بناء يتكامل بدوره مع غيره من الابنية الاخرى في هذا الوجود . لقد أصبحت العناصر الجزئية لأي بناء ليست ذات معنى في حد ذاتها وهي منفردة ، وانما تنبع حقيقتها ويظهر معناها عند ارتباطها بغيرها من العناصر الجزئية الاخرى في علاقات تنظيمية محددة وثابتة . ومن هنا أصبحت الاولوية في البنائية للعلاقات دون الاشياء ، لان تلك العلاقات هي التي تحدد وظيفة الاشياء وتخلع عليها المعاني المختلفة ، وهي التي تجعل لكل شيء بناءا متكاملا ، يرتبط بدوره مع غيره من الابنية الاخرى في علاقات أكثر اتساعا . ان كل بناء في الوجود كاللغة والمجتمع والانسان وغيرها عبارة عن علاقات تجمع بين جزئيات متعددة ، تحدد لها طبيعتها ووظيفتها ودورها التاريخي أو الاجتماعي ، وكشف هذه العلاقات يعني إمكان التحكم في البناء نفسه ، واعادة ترتيب العلاقات التي تربط بين جزئياته ، والارتقاء بأدائه

الوظيفي ، فيتحقق بذلك التقدم المنشود بالنسبة للبناء الانساني خاصة ٠

د ـ وهكذا تكون البنائية منهجا مفتوحا يدرس العلاقات القائمة بين أجزاء كل بناء انساني ، ويعتمد هذا المنهج على عدة قواعد أساسية يمكن أن نستخلصها من دراستنا الموجزة السابقة وهما :

أولا : تحليل كل بناء الى جزئياته التي يتكون منها، وذلك للكشف عن العلاقات الموضوعية التي تربطها بعضها ببعض ، ثم اعادة تركيبها في بناء كلي جديد يكون أرقى من البناء السابق وأكثر تقدما منه ٠ ثانيا : تحديد اتجاه عملية تحليل وتركيب كل بناء ، وهذه تتمثل في الصفة الانسانية التي يجب أن تكون هي الاساس في دراسة أي بناء ، مهما كان الاعتقاد في أنه بعيد عن الانسان ، وذلك لان البنائية في جوهرها نزعة انسانية تهدف الى تطوير الابنية الانسانية المختلفة والارتقاء بالعلاقات الوظيفية التي تربط جزئياتها فيما بينها ٠ ثالثا : اكتشاف الماهيات الكامنة خلف كل بناء ، هذه الماهيات التي تتمثل في العلاقات الموضوعية ، وهي ليست ماهيات عقلية مجردة ، وانما هي نفسها هذه العلاقات وليست شيئا آخر أعلى منها ٠

وقـد قام البنائيون ـ مـن خلال هذا المنهـج ـ بـدراسة الكثير من الابنية الانسانيـة المختلفة كاللغـة والعادات والاساطير وغيرها ، ليستخرجوا منها حقيقـة العلاقـات التي تربطها فيما بينها ، وليكتشفوا ماهيـة الانسان ويرتقوا بأدائه الوظيفي في شتى مجالات الحياة .

مراجع عربية مختارة

١ ـ أحمد أمين وزكي نجيب : « قصة الفلسفة الحديثة »
جزءان ١٩٥٩
٢ ـ امبل برييه : « اتجاهات الفلسفة المعاصرة »
ترجمة محمود قاسم ١٩٥٦
٣ ـ ادموند هوسرل : « تأملات ديكارتيـة ، مدخل الى الظاهريات »
ترجمة نازلي اسماعيل ١٩٦٩
٤ ـ أورمسان ، ج. أ. : «الموسوعة الفلسفية المختصرة»
ترجمة باشراف زكي نجيب محمود ١٩٦٣
٥ ـ برتراند راسل : « النظرة العلمية »
ترجمة عثمان نويه ١٩٥٦
٦ ـ برتراند راسل : « فلسفتي وكيف تطورت »
ترجمة عبد الرشيد الصادق ١٩٦٠
٧ ـ برتراند راسل : « مقدمة للفلسفة الرياضية »
ترجمة محمد مرسي أحمد ١٩٦٢
٨ ـ برتراند راسل : « سيرتي الذاتية »
ترجمة باشراف شوقي السكري ١٩٧٠
٩ ـ بوخنسكي، أ. م. : « الفلسفة المعاصرة في أوربا »
ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ١٩٧٠
١٠ ـ جان بول سارتر : « الوجودية فلسفة انسانية »
ترجمة حنا دميان ١٩٥٤

١١ ــ جان بول سارتر : « الماركسية والوجودية »
ترجمة جورج طرابيشي ١٩٦٤
١٢ ــ جان بول سارتر : « الوجود والعدم »
ترجمة عبد الرحمن بدوي ١٩٦٦
١٣ ــ جورج طرابيشي : « سارتر والماركسية » ١٩٦١
١٤ ــ جان ايف كالفيز : « تفكير كارل ماركس »
ترجمة الدروبي والأتاسي ١٩٥٩
١٥ ــ جورج بوليتزر وآخرون: «أصول الفلسفةالماركسية»
جزءان ترجمة شعبان بركات ١٩٥٩
١٦ ــ داجوبرت ريونز : « فلسفة القرن العشرين »
ترجمة عثمان نويه ١٩٦٣
١٧ ــ رالف بارتون بيري: «أفكار وشخصية وليام جيمس»
ترجمة محمد علي العريان ١٩٦٥
١٨ ــ زكي نجيب محمود : « برتراند راسل » ١٩٥٩
١٩ ــ زكريا ابراهيم : « برجسون » ١٩٥٦
٢٠ ــ زكريا ابراهيم : « الفلسفة الوجودية » ١٩٥٦
٢١ ــ زكريا ابراهيم : « دراسات في الفلسفة المعاصرة »
١٩٦٨
٢٢ ــ سعد عبد العزيز حباتر : « مشكلة الحرية
في الفلسفة الوجودية » ١٩٧٠
٢٣ ــ علياء شكري : « علم الاجتماع الفرنسي المعاصر »
١٩٧٢
٢٤ ــ فردريك انجلز : « الاشتراكية الخيالية
والاشتراكية العلمية »
ترجمة عبد الفتاح طليمات ١٩٥٧
٢٥ ــ لينين ، ف.أ. : « المختارات » ثلاثة اجزاء
الترجمة العربية في موسكو ١٩٦٠

٢٦ ـ لينين ، ف.ا. : « ماركس ، انجلز والماركسية »
الترجمة العربية في موسكو ١٩٦٧
٢٧ ـ لينين ، ف.ا. : « مصادر الماركسية الثلاث »
الترجمة العربية في موسكو ١٩٦٧
٢٨ ـ مراد وهبة : « قصة الفلسفة » ١٩٦٨.
٢٩ ـ محمد فتحي السنيطي : « فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة » ١٩٦٨
٣٠ ـ محمود رجب: «الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين» ١٩٦٦
٣١ ـ محمود زيدان : « وليم جيمس » ١٩٥٨
٣٢ ـ هربرت شنيدر : « تاريخ الفلسفة الأمريكية »
ترجمة محمد فتحي الشنيطي ١٩٦٤
٣٣ ـ هنري لوفافر وآخرون : « لينين الفيلسوف »
ترجمة فؤاد أيوب ١٩٥٤
٣٤ ـ هنري برجسون : « رسالة في معطيات الوجدان المباشرة »
ترجمة كمال يوسف الحاج ١٩٤٥
٣٥ ـ هنري برجسون : « الطاقة الروحية »
ترجمة سامي الدروبي ١٩٤٦
٣٦ ـ هنري برجسون : « الفكر والواقع والمتحرك »
ترجمة سامي الدروبي ١٩٦٠
٣٧ ـ هنري برجسون : « التطور الخالق »
ترجمة محمود قاسم ١٩٦٠
٣٨ ـ هنري برجسون : « منبعا الأخلاق والدين »
ترجمة الدروبي وعبد الدائم ١٩٦٥
٣٩ ـ وليام جيمس : « ارادة الاعتقاد »
ترجمة محمود حب‌الله ١٩٤٦

٤٠ ـ وليام جيمس : « العقل والدين »
ترجمة محمود حب الله ١٩٤٩
٤١ ـ وليام جيمس : « بعض مشكلات الفلسفة »
ترجمة محمد فتحي الشنيطي ١٩٦٢
٤٢ ـ وليام جيمس : « البراجماتية »
ترجمة محمد علي العريان ١٩٦٥
٤٣ ـ يوسف كرم : « تاريخ الفلسفة الحديثة » ١٩٦٦
٤٤ ـ يحيى هويدى: «أضواء على الفلسفة المعاصرة» ١٩٥٨
٤٥ ـ يحيى هويدى : « دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة » ١٩٦٨

الفهرس